الرحلة
إلى الشرق

هيرمان هسّه

- المؤلف: هيرمان هسّه
- العنوان: الرحلة إلى الشرق
- ترجمة: سميرة الكيلاني
- طبعة آفاق الأولى 2020
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
٢٠١٩ / ١٥٧٠٥
الترقيم الدولي: ISBN
978 - 977-765 - 232 - 2

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

هيرمان هسّه

الرحلة إلى الشرق

ترجمة
سميرة الكيلاني

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

هسه، هيرمان

الرحلة إلى الشرق – هيرمان هسه

ترجمة: سميرة الكيلاني

ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2020

112 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 15705 / 2019

الترقيم الدولي 2 – 232 – 765 – 977 – 978

1 – روايات (الأدباء)

2 – العنوان

إهداء

كان المفروض أن يكتب مقدمة هذا الكتاب الزميل الأديب عباس أحمد. إلا إن المنية عاجلته بعد صراع عنيف مع المرض، تحمله بشجاعة وصبر.

فإلى روحه الطاهرة... إلى الأخ والزميل والأديب عباس أحمد، أهدي هذا الكتاب.

سميرة الكيلاني

الفصل الأول

لما كان مقدَّرًا عليَّ أن أشارك في تجربة عظيمة، وكان من حسن حظي أن أنتمي «للعصبة»، وأنْ يُتاح لي الإسهام في تلك الرحلة الفريدة التي تألقت غرابتها كالشهاب، ثم ما لبثت بعد ذلك أن غاصت في طي النسيان -بل سقطت في العار، فقد قررت الآن أنْ أحاول تقديم صورة وصفية مختصرة لهذه الرحلة التي لا تصدق- فلم يجرؤ إنسان على أنْ يُغامر برحلة كهذه منذ أيام «هوجو» و«رولاند» المجنون حتى عصرنا الراهن، هذه المرحلة الزاخرة بالقلق والاضطراب، وإن تكن غايةً في الخصوبة التي أعقبت الحرب العظمى، لم أسمح لنفسي أن تتملكها أي أوهام فيما يتعلق بالصعوبات التي يمكن أن تكشف محاولة كهذه، إنها صعوبات كبيرة للغاية، وهي لست مجرد صعوبات ذاتية، وحتى إن تكن كذلك، فهي كافية في ذاتها إلى حد كبير، ذلك أني لم أعد أملك فحسب التذكرات والأيقونات والوثائق والمذكرات التي تتعلق بالرحلة، بل لقد فقدت كذلك ذكرياتي في السنوات الصعبة التي انقضت، والتي كانت مليئة بالحظوظ العاثرة والأمراض والآلام العميقة، إنَّ ضربات القدر، والإحباط المستمر قد أفقداني القدرة على

أنْ أتذكر وأن أثق في تلك الذكريات القديمة المتوهجة إلى جانب هذه الملاحظات الشخصية الخالصة، فهناك العهد السابق الذي قَطَعتهُ مع «العصبة» والذي يَحُدُّ من تعبيري. ورغم ما يسمح به هذا العهد من أن أنقل بغير حدود خبراتي الشخصية، فإنه يحرّم الكشف عن «العصبة» نفسها، ومع أن «العصبة» تبدو وكأنها لم يكن لها وجود ملموس لمدة طويلة، ولم أعد أشاهد أحدًا من أعضائها مرة أخرى، فلن يدفعني أي إغراء أو تهديد في العالم إلى أن أحنث بعهدي، بل على العكس من ذلك؛ إذ لو حدث اليوم أو في المستقبل أن كان عليَّ أنْ أمْثُلَ أمام محكمة عسكرية وخُيِّرت بين الموت أو إفشاء سر «العصبة»، فإنني سأكون سعيدًا أن أختم بالموت على عهدي «للعصبة».

ويمكن أن نسجل هنا أنه منذ مذكرات الأسفار الخاصة بالكونت «كيزرلنج»(*) فقد ظهرت كتب عديدة، أعطى فيها أصحابها -جزئيًّا من دون وعي منهم، وجزئيًّا عن عمد- الانطباع بأنهم إخوة في «العصبة» وأنهم شاركوا في الرحلة إلى الشرق، وبالمناسبة، فحتى تقارير الرحلة المغامرة التي قام بها «أوسندوفسكي» ينطبق عليها هذا الشك الذي له ما يبرره، ولكنهم أبعد ما يكونون عن «العصبة» وعن رحلتنا إلى الشرق، كبُعد رؤساء نِحلة صغيرة من الأدعياء الزنادقة عن المخلّص والرسل والروح القدس، وهم يسعون إلى الانتماء إليهم طالبين الحظوة والانتماء.

(*) كيزرلنج: **Keyserling**.

وحتى إذا كان كونْت «كيزرلنج» قد أبحر حقيقة حول العالم بسهولة، وإذا كان «أوسندوفسكي» قد اجتاز بالفعل البلاد التي وصفها، فإن رحلاتهما لم تكن ذات أهمية تذكر، ولم يكتشفا أراضيَ جديدة، في حين أنه في مراحل معينة من رحلتنا إلى الشرق، وبالرغم من أننا قد قررنا الاستغناء عن المساعدات المتنقلة للسفر الحديث كالسكك الحديدية والسفن البخارية والتلغراف والسيارات والطائرات... إلخ، فإننا اخترقنا عالم البطولة والسحر.

لقد كان هذا بعد الحرب العظمى بقليل، وكانت معتقدات البلاد المهزومة في حالة غير عادية من اللا واقعية، وكان هناك استعداد في أشياء تتجاوز الواقع، رغم أنَّ عقبات قليلة قد تم تخطيها بالفعل، وتحقق تقدم محدود نحو إمكان قيام طبٍّ عقلي في المستقبل. أما رحلتنا في ذلك الوقت إلى «فاماجوستا» عبر محيط القمر تحت قيادة ألبرت الأكبر، أو فلنقل اكتشاف جزيرة الفراشة التي تبعد ١٢ عقدة عن «زيانجو» أو الاحتفال الملهم «للعصبة» عند قبر «روديجر»... فقد كانت أعمالًا وخبراتٍ لا تُتاح أكثر من مرة واحدة لأشخاص في زماننا ومنطقتنا هذه.

أرى أنني أُواجه الآن واحدة من أصعب العوائق في عرضي للموضوع، فالآفاق التي ارتفعت إليها أعمالنا والمستوى الروحي التي تنتسب إليه هذه الأعمال قد يكون أيسر فهمًا –نسبيًّا– للقارئ إذا سمح أن يكشف له عن جوهر سر «العصبة»، وسوف يظل جزء كبير

-ربما كل شيء- غير مُصدَّق وغير مفهوم بالنسبة للقارئ -يجب أن نقبل دائمًا التناقض القائل بأننا يجب أنْ نحاول باستمرار ما يبدو مستحيلًا- وإنني أوافق «سِيدهارتا» صديقنا الحكيم من الشرق الذي قال ذات مرة «إنَّ الأقوالَ لا تعبر جيدًا عن الأفكار... فكل شيء يصبح بشكل مباشر مختلفًا قليلًا.. مشوهًا قليلًا.. وسخيفًا بعض الشيء». ومع هذا فإنه يسعدني ويبدو حقًّا أنَّ ما يكون ذا قيمة، وعلى جانب من الحكمة لإنسان ما، يبدو هراء لغيره. ولقد عرف هذه الصعوبة أعضاء عصبتنا ومؤرخوها، وواجهوها بشجاعة، حتى منذ قرون بعيدة. وقد عَبَّر واحد من أعظمهم عن ذلك في شِعر خالد:

«هذا الذي يسافر بعيدًا، سوف يرى في كثير من الأحيان أشياء

بعيدة جدًّا عما كان يظن أنه الحقيقة.

وعندما يتحدث عنها في حقول بلدته

فإنه غالبًا ما يُتهم بالكذب

لأن البشر العنيدين لن يصدقوا

ما لا يرونه، وما لا يشعرون به شعورًا متميزًا.

إن عدم الحماسة فيما أعتقد

لن يهب أغنيتي إلا قدرًا ضئيلًا من التصديق».

ورغم أن رحلتنا قد ارتفعت ذات مرة بآلاف إلى حالة من النشوة، فلقد أدَّى «انعدام الخبرة» إلى وضع نَسيَ فيه الجمهور رحلتَنا، بل

فُرِضَ حَظْرٌ على تذكرها، والتاريخ غني بأمثلة مشابهة. وما أكثر ما يبدو لي أنَّ تاريخ العالم كله ليس أكثر من كتاب مصور يرسم أشد رغبات الإنسانية قوة وانعدام معنى، وأقصد بها الرغبة في النسيان. ألم يستخدم كل جيل وسائل القمع والإخفاء والسخرية ليمحو كل ما كان يُعده الجيل السابق عليه بالغ الأهمية؟ ألم نعاني نحن أنفسنا منذ عهد قريب أنَّ حربًا طويلة بشعة ووحشية نسيتها كل الأمم، بل شوهتها واستبعدتها؟ والآن نفس هذه الأمم، بعد مهلة قصيرة، أليست هي التي تحاول أن تتذكر بواسطة روايات الحرب المثيرة ما سبق أن تسببوا فيه وما عانوه من سنوات قليلة مضت؟ وبنفس الطريقة سيأتي اليوم الذي تكتشف فيه من جديد منجزات عصبتنا وأحزانها، هذه المنجزات والأحزان التي أصبحت الآن في طي النسيان أو مثار سخرية في العالم، وستصبح مذكراتي مساهمة ضئيلة في استعادتها.

كانت إحدى مميزات الرحلة إلى الشرق، أنه برغم أن «العصبة» كانت تتطلع إلى أهداف محددة وسامية جدًّا أثناء هذه الرحلة، «إن هذه الأهداف تنتمي إلى الجانب السري، ولهذا لا يمكن الكشف عنها»، فقد كان لكل عضو أهدافهُ الخاصة التي من دونها لا يمكن في الواقع أن ينضم إلى الجماعة. ورغم ما يبدو من مشاركة كل واحد منا في نفس المثل العليا والأهداف، فلقد تنشأ مرتبطًا بحلم طفولته العزيز، مستريحًا إليه، هذا الحلم الذي يكمن عميقًا بين جوانحه كمصدر قوةٍ باطنية وطمأنينة.

لقد كان هدفي الشخصي من الرحلة، الذي سألني عنه الرئيس قبل قبولي في «العصبة» هدفًا بسيطًا، إلَّا أن كثيرًا من أعضاء «العصبة» قد وضعوا لأنفسهم أهدافًا لم أفهمها تمامًا برغم احترامي لها. فعلى سبيل المثال، كان أحدهم يبحث عن كنز، وما كان يفكر في شيء إلَّا في الحصول على كنز عظيم يطلق عليه اسم «تاو»، وتعلق آخر بفكرة اصطياد ثعبان معين كان يُنسب إليه قوى سحرية وكان يطلق عليه اسم «كوانداليني»، أما رحلتي الخاصة وأهداف حياتي التي لونت أحلامي منذ صباي المبكر، فقد كانت رؤية الأميرة «فاطمة» والظفر بحبها إن أمكن.

عندما حالفني الحظ السعيد بالانضمام إلى «العصبة»، وكان هذا عقب الحرب العظمى مباشرة، كانت بلادنا تمتلئ بالمبشرين بالخلاص وبالأنبياء وبالتلامذة الأتباع، كما شاعت الهواجس حول نهاية العالم أو الآمال حول بزوغ فجر الإمبراطورية الثالثة. لقد خرجت جماهيرنا من الحرب ممزقة، تنزف يأسًا نتيجة للحرمان والجوع، مدركة بوضوح عبث تضحياتها بالدم والمتاع، ولهذا تعرضت لأوهام عديدة، إلَّا أنَّ تقدمًا روحيًّا حقيقيًّا قد تحقق في الوقت نفسه، فتشكلت جمعيات للرقص الباخوسي، وجمعيات لإعادة التعمير، وأخذ يبرز شيء تلو الآخر يبدو أنه يشد إلى ما هو مدهش، وإلى ما وراء الحجب، وشاع في ذلك الوقت أيضًا ميلٌ إلى الحضارات الهندية والفارسية القديمة، وغير ذلك من الأسرار والديانات الشرقية. ولقد أثار هذا لدى معظم الناس انطباعًا بأن «عصبتنا» القديمة كانت واحدة من بين النِّحَل

الكثيرة التي ازدهرت أخيرًا، ولن تلبث كذلك بعد بضع سنوات أن تصبح شبه منسية، محتقرة، مذمومة. ولم يستطع المخلصون من بين تلاميذها أن ينكروا ذلك.

إنني لا أتذكَّر جيدًا كيف قدمت نفسي بعد انتهاء سنتي التجريبية أمام «العرش الأعلى». لقد تكشف لي الهدف من الرحلة إلى الشرق. وبعد أن كرَّست نفسي روحًا وجسدًا لهذا المشروع، وسُئِلت بطريقة ودية عما آمل أن أظفر به أنا شخصيًّا من هذه الرحلة إلى العالم الأسطوري. لقد احمر وجهي حمرةً خفيفةً، وأنا أعترف بصراحة وبغير تردد للهيئة المجتمعة بأنني أتمنى من كل قلبي أن تتاح لي رؤية الأميرة فاطمة، وبعد أن فسَّر الرئيس ما أَلمح إليه، وضع يده برقة على رأسي وتمتم بالعبارة التي تؤكد قبولي عضوًا في «العصبة، قال: «حياة نقية»، وتمنى لي أن أكون وفيًّا للعهد، شجاعًا في المخاطر، وأن أحب زملائي. ولما كنت تلميذًا مجدًّا أثناء السنة التجريبية، فقد أديت القسم، وتخليت عن العالم وخرافاته، ولمست بخاتم «العصبة» الموضوع في إصبعي كلمات من أكثر فصول تاريخ «العصبة» جمالًا:

على الأرض وفي الهواء، في الماء وفي النار
الأرواح تكون في خدمته
نظراته تخيف أكثر الحيوانات توحشًا وتروضها
وحتى مناهضي المسيحية يجب أن يقتربوا منه في وجل... إلخ.

ما أشد سروري عندما قيل لنا نحن الأعضاء المبتدئين -بعد قبولنا مباشرة في «العصبة» عن آفاق عملنا. وعلى سبيل المثال، عندما نفذت تعليمات الرؤساء بالانضمام إلى إحدى المجموعات التي تتكون من عشرة أشخاص مسافرين للحاق برحلة «العصبة»، استطعت أن أتبين بوضوح تام واحدًا من أسرار «العصبة». فقد تحققت من أنني قد انضممت إلى بعثة حج متجهة إلى الشرق. وكانت تبدو محددة ووحيدة.

إلا أن هذه الرحلة إلى الشرق، في الحقيقة، وبمعناها الأرحب، لم تكن فحسب خاصة بي وحدي، والآن بل إن هذا الموكب من المؤمنين والتلاميذ كانوا دائمًا يتحركون بغير توقف نحو الشرق، نحو «بيت النور»، فطوال كل العصور كان الموكب في الطريق نحو النور والانبهار والمدهش. كل عضو وكل جماعة، بل إن بعثة حجنا العظيمة بكل من فيها لم تكن إلا موجة من موجات التيار الأبدي للبشرية، وللنضالات... كفاح أزلي للأبدية، للروح البشرية نحو «الشرق» نحو «البيت»، لقد تألقت هذه الحقيقة في خاطري كشعاع من نور، وفي التو، ذكرتني بجملة كنت تعلمتها خلال سنتي الإعدادية، وكانت تثير في نفسي دائمًا السعادة الفائقة دون أنْ أعرف مغزاها الكامل. كانت جملة قالها الشاعر «نوفاليس»:

«إلى أين نحن ذاهبون حقيقة؟ دائمًا إلى البيت».

لقد بدأت جماعتنا في أثناء ذلك في الرحيل، وسرعان ما التقينا

بجماعات أُخرى، وقد تضاعفت سعادتنا بشعورنا بالوحدة وبهدف مشترك. لقد عشنا كحجاج مخلصين لتعاليمنا، ولم نستعن بتلك الأجهزة التي أخذت تبرز في عالم أضلّه المال والوقت والأشكال، والتي أفقدت الحياة من كل معنى. أجهزة آلية كالسكك الحديدية، والساعات وما شابه ذلك مما يندرج أساسًا تحت هذا النوع. وكانت هناك قاعدة أخرى كنا نراعيها بالإجماع قد فرضت علينا، أن نقوم بزيارة كل الأماكن والروابط التي تتصل بالتاريخ القديم لعصبتنا ومعتقداتها، وأنْ نقدم لها فروض الاحترام والتكريم. كما زرنا وباركنا كل الأماكن المقدسة والنُّصُب الأثرية والكنائس والأضرحة التي صادفناها في طريقنا.. وقد زينا المعابد والهياكل بالورد.. وكرّمنا الأطلال بالتراتيل والتأملات الصامتة، وأحيينا ذكرى الموتى بالموسيقى والصلوات. ولم يكن غريبًا علينا أنْ نلتقي بمن يسخر منا ويزعجنا من غير المؤمنين، على أنه ما أكثر كذلك ما التقينا برهبان أخذوا يباركوننا ويستضيفوننا لديهم، وبأطفال أخذوا ينضمون بحماس إلينا، ويحفظون أغانينا، ثم يودعوننا والدموع تترقرق في أعينهم، كما التقينا كذلك برجل مسنٍّ راح يرشدنا إلى بعض الآثار المنسية، ويحكي لنا أسطورة عن المنطقة التي يعيش فيها، وبشبان راحوا يرافقوننا جزءًا من الطريق، ويعبرون عن رغبتهم في الانضمام إلى «العصبة»، ولقد أسدينا النصائح لهؤلاء الشباب وعلمناهم الطقوس والممارسات الأولى للأعضاء تحت الاختبار.

لقد كنا مدركين للأعاجيب الأولى، أحيانًا برؤيتنا المباشرة لها، وأحيانًا أخرى عن طريق الأساطير والحكايات غير المتوقعة، وفي أحد الأيام عندما كنت لا أزال عضوًا جديدًا، ذكر أحد الأشخاص فجأة أن المارد «أجرامانت» كان ضيفًا في خيمة رؤسائنا، ويحاول إقناعهم أن يتجهوا إلى أفريقيا لتحرير بعض أعضاء «العصبة» من أسر المغاربة، وفي مرة أخرى رأينا «الجنيّ» صانع القار «الزفتاوي» ولفَّاف الرقاب، واعتقدنا أنه يجب أن نتجه إلى «القدر الزرقاء»، على أن الظاهرة المدهشة التي رأيتها بعيني رأسي كانت عندما وقفنا للصلاة والراحة في معبد نصف محطم في إقليم «شبيندروف»، فقد رسم على الجدار الوحيد السليم للمعبد صورة كبيرة جدًّا للقديس «كريستوفر» وعلى كتفيه وفي رسم شبه باهت بتأثير القدم، جلس الطفل المخلص، ولم يقترح القادة ببساطة -كما كانت عادتهم أحيانًا- الاتجاه الذي يجب أنْ نسير فيه، ولكنهم طلبوا منا جميعًا تقديم مقترحاتنا؛ إذ إن المعبد يقع بين ثلاثة اتجاهات، وكان علينا أن نختار. نفر قليل منا هم الذين أبدوا رغبة أو قدموا نصيحة، إلا أن واحدًا منا أشار إلى اليسار وطالب بإلحاح، أنه ينبغي علينا أن نختار هذا الطريق. وظللنا جميعًا صامتين ننتظر قرار رؤسائنا، وهنا رفع القديس «كريستوفر» ذراعه بالعصى الطويلة الغليظة، مشيرًا إلى اليسار حيث كان زميلنا يريد أن يذهب. راقبنا ذلك في صمت، وفي صمت استدار القادة نحو اليسار، وساروا في هذا الطريق وتبعناهم جميعًا ونحن في قمة النشوة.

ولم نكد نسير طويلًا في طريقنا في «سوابيا» حتى لاحظنا قوة لم نكن فكّرنا فيها، وكنا قد شعرنا بتأثيرها بشدة منذ فترة دون أن نعرف تمامًا ما إذا كانت قوة موالية أو معادية. لقد كانت قوة حراس التاج الذين حافظوا –منذ أزمان بعيدة– على ذكرى وميراث «الهوهنستوفن» في هذه البلاد. ولم أكن أعلم إذا كان قادتنا يعلمون شيئًا أكثر من ذلك عنها، وهل كان لديهم أي تعليمات بشأنها؟ وكل ما أعلمه أننا تلقينا منهم كثيرًا من التحذيرات والتنبيهات، كما حدث على التل في طريقنا إلى «أبوسفنجن» حيث قابلنا محاربًا أَشْيَبَ عجوزًا هز رأسه الرمادي وهو مغمض العينين، ثم اختفى ثانية دون أن يترك أي أثر. ولقد تلقى قادتنا التحذير، فاستدرنا إلى الخلف ولم نذهب إلى «بويفنجن»، ومن الناحية الأخرى حدث في ضاحية «أوراغ» أن ظهر أحد سفراء حراس التاج في خيمة قادتنا، كما لو انشقت عنه الأرض، وحاول عن طريق الوعد والوعيد أن يقنعهم أن نجعل رحلتنا في خدمة «الستوفن»، وأن نستعد لغزو صقلية. وعندما رفض قادتنا هذا الطلب بحسم، قال إنه سيلحق بعصبتنا وبرحلتنا لعنة فظيعة. ومع هذا فإنني إنما أسجل فحسب، ما كان يدور من همس بيننا. فلم يُشر القادة أنفسهم بكلمة إلى ما حدث على أنه يبدو أن علاقاتنا غير المؤكدة لمدة طويلة مع حراس التاج، قد ألصقت بعصبتنا تلك السمعة التي تستحقها باعتبارها جمعية سرية لإعادة الملكية.

في إحدى المناسبات عشت تجربة مشاهدة أحد زملائي، وقد

أخذت تراوده الشكوك، فنبذ العهد، وارتد إلى عدم الإيمان. كان رجلًا صغير السن أحببته كثيرًا. وكان السبب الشخصي الذي انضم من أجله إلى رحلة الشرق هو رغبته في أن يرى كفن النبي محمد الذي أشيع بأنه يمكن أن يرتفع منه بالسحر محلقًا في الهواء. وفي إحدى المدن «السوابيان» أو الألمانيك الصغيرة، حيث وقفنا بضعة أيام لأنَّ مواجهة زحل والقمر قد عرقلت تقدمنا، تم لقاء بين هذا الرجل سيئ الحظ والذي كان يبدو حزينًا وقلقًا لفترة من الزمن، وبين أحد مدرسيه السابقين الذي ظل متعلقًا تعلقًا كبيرًا به منذ أيام الدراسة. وقد نجح هذا المدرّس في أن يجعل الشاب يدرك من جديد قضيتنا في الضوء الذي تبدو فيه لغير المؤمنين. وعقب إحدى هذه الزيارات للمدرس، عاد الرجل المسكين لمعسكرنا وهو في حالة بشعة من الاضطراب، وكان وجهه مكفهرًا.. وأحدَث ضجةً خارج خيمة القادة. وعندما خرج إليه الرئيس، صاح في وجهه بغضب معلنًا أنه قد سئم هذه الرحلة السخيفة التي لن تصل بنا أبدًا إلى الشرق، وأنه قد سئم من هذه الرحلة التي تتعطل أيامًا بسبب اعتبارات تنجيمية غيبية. إنه أكثر من مرهق بسبب الكسل والتجوال الطفولي ومهرجانات الزهور، والاهتمام بالسحر والخلط بين الحياة والشِّعر. وإنه سوف يلقي بالخاتم عند أقدام القادة، ويغادرهم عائدًا بالسكة الحديد -التي لا سبيل للشك فيها- إلى منزله وإلى عمله النافع. لقد كان منظرًا قبيحًا ويدعو إلى الرثاء. ولقد امتلأنا بالخزي والعار، ولكننا في الوقت نفسه رثينا لحال الرجل الضال. ولقد استمع إليه الرئيس بعطف، وانحنى مبتسمًا وهو يلتقط الخاتم

المرفوض، ثم قال في صوت هادئ مرح لا شك أنَّه أثار الخجل في نفس الرجل المتبجح: «لقد قلت لنا وداعًا، و تريد أن تعود إلى السكة الحديدية، وإلى التعقل العادي المألوف، وإلى العمل النافع. لقد قلت وداعًا للعصبة، للرحلة إلى الشرق، قلت وداعًا للسحر ولاحتفالات الزهور وللشعر. لقد أُعفيت من قسمك»، وصرخ الرجل المنشق: «وكذلك من قَسَم الصمت»، وأجاب الرئيس: «نعم، وكذلك من قسم الصمت. تذكر أنك أقسمت ألَّا تبوح بسر الرحلة لغير المؤمنين. وكما نرى، لقد نسيت السر، ولن تستطيع أن تنقله لأحد».

وصرخ الشاب: «لقد نسيت شيئًا؟ لم أنسَ شيئًا». ولكنه لم يلبث أن أصبح متشككًا فيما يقول. وعندما أدار الرئيس ظهره له وانسحب إلى الخيمة، اندفع الشاب فجأة يجري بعيدًا.

ولقد أسفنا له، إلَّا أنَّ الأيام اكتظت بالأحداث حتى إنني نسيته سريعًا. ولكن حدث بعد ذلك بقليل، عندما لم يعد أحد منا يفكر فيه، أنْ سمعنا من سكان العديد من القرى والمدن التي مررنا بها حديثًا عن هذا الشاب نفسه. لقد كان هناك شاب [وهم يصفونه وصفًا دقيقًا، ويذكرون اسمه]، وإنه كان يبحث عنا في كل مكان. في البداية كان يقول إنه ينتمي إلينا، وإنه تخلف عن الرحلة وضلَّ طريقه. ثم لا يلبث أنْ يأخذ في البكاء، مقرًّا بأنه لم يكن وفيًّا لنا، وبأنه فرَّ هاربًا، على أنه الآن قد تأكد أنه لا يستطيع العيش خارج «العصبة». وكان يرغب، بل حقًّا ينبغي أنْ يعثر علينا حتى يخر راكعًا أمام القادة طالبًا العفو. سمعنا

هذه القصة تُروى مرة أخرى هنا وهناك وفي كل مكان. وأينما ذهبنا نتبين أن الرجل التعس كان هناك منذ قليل. وقد سألْنا الرئيس ماذا يرى في ذلك وما النتيجة؟ فقال باختصار: «لا أظن أنه سوف يعثر علينا» وهو لم يعثر علينا، ونحن لم نره مرة أخرى.

وذات مرة استدرجني أحد القادة إلى محادثة خاصة، فاستجمعت شجاعتي وسألته عن أحوال هذا الأخ المرتد. وأضفت بأنه على أي حال قد تاب وأخذ يبحث عنا، ويجب أنْ نساعده على الخلاص من زلته، ولا شك أنه في المستقبل قد يصبح أكثر أعضاء العصبة ولاءً. فقال الرئيس: «سوف نكون سعداء إذا عثر على طريق عودته إلينا مرة أخرى، ولكننا لا يمكن أن نساعده. لقد جعل الأمر من الصعوبة الفادحة على نفسه أنْ يستعيد الإيمان من جديد. وإنني لأخشى أنه قد لا يستطيع رؤيتنا أو التعرف علينا حتى لو مررنا على مقربة شديدة منه.. لقد أصبح أعمى. إن التوبةَ وحدها لا تساعده. والعفو لا يمكن أن يُشترى بالتوبة. العفو لا يمكن أن يُشترى أبدًا. إن نفسَ هذا الأمر قد حدث بالفعل لأناس كثيرين. لقد واجه المصير نفسه الذي يواجهه هذا الشاب رجال عظماء مشهورون، بزغ لهم النور ذات مرة، وهم في شرخ شبابهم، لقد رأوا النور واتبعوا الكوكب، ولكن ما لبث أن برز التعقل والسخرية من العالم.. ثم كان الخور والإحباط الماثل، ثم كان الإرهاق وانقشاع الوهم، وهكذا ضلوا طريقَهم من جديد، وأصبحوا عميانًا مرة أخرى. بعضهم قضى بقية حياته يبحث عنا من جديد،

ولكنهم لم يستطيعوا أن يعثروا علينا، وحينذاك راحوا يقولون للعالم بأن «عصبتنا» ليست إلَّا أسطورة جميلة، وعلى الناس ألَّا ينخدعوا بها. وبعضهم الآخر أصبح من ألد أعدائنا، وراح يسفه «العصبة» ويسيء إليها بكل وسيلة ممكنة».

كانت تقام احتفالات مدهشة في الأيام التي نلتقي فيها –ونحن في طريقنا– بمجموعات أخرى من ضيوف «العصبة»، وعندئذ كنا نشكّل أحيانًا معسكرًا يضم المئات بل الآلاف. والحق أنَّ الرحلة لم تواصل طريقها بحسب نظام محدد، يتحرك فيه الجميع في نفس الاتجاه وفي طوابير متلاصقة نسبيًّا، بل على العكس من ذلك، كان العديد من المجاميع تتحرك في نفس الوقت، ولكن كل واحد فيها يتبع قائده الخاص، أو كوكبه الخاص ومتأهب دائمًا للاندماج في وحدة أكبر، والانتماء لها فترة من الزمن، إلا أنه متأهب كذلك لأن يتحرك منفصلًا عنها من جديد. ولقد سار البعض في طريقهم منفردين تمامًا، وأنا كذلك سرت وحيدًا في بعض الأحيان عندما كانت تغريني إشارة أو يغريني نداء بأن أنتهج طريقي الخاص.

وإني لأذكر مجموعة صغيرة منتقاة، كنا رافقناها رحلتنا وعسكرنا بضعة أيام، أذكر أن هذه المجموعة كانت قد أخذت على عاتقها تحرير بعض الأسرى من إخوة «العصبة» –وكذلك تحرير الأميرة إيزابيلا من أيدي المغاربة. وقد قيل إنهم في قبضة «بوق هيجو»، وكان بينهم أصدقائي الشاعر «لوتشر» والفنانان «كلنجسور» و«بول كلي»

ما كانوا يتحدثون إلا عن أفريقيا وعن الأميرة الأسيرة. وكان كتابهم المقدس هو الكتاب الخاص بأعمال «دون كيشوت» الذي فكروا أن يواصلوا طريقهم عبر أسانا تمجيدًا له.

كان ممتعًا للغاية أن نقابل واحدة من هذه المجموعات، وأن نحضر أعيادهم وصلواتهم، وأن ندعوهم لأعيادنا وصلواتنا، ونستمع منهم إلى أعمالهم وخططهم، وأن نباركهم ونتعرف عليهم، ونحن نفترق كانوا يمضون في طريقهم، ونمضي نحن في طريقنا، كان لكل واحد منهم حلمه وأمنيته وأشواقه القلبية الدينية، ومع هذا فقد تدفقوا جميعًا في التيار العظيم وانتمى كل منهم للآخر، واشتركوا جميعًا في نفس مشاعر الاحترام وفي نفس الإيمان، وأدوا نفس القسم! ولقد قابلت الساحر «حُبْ» الذي تمنى أنْ يجد أعظم سعادة لحياته في كشمير. وقابلت العرَّاف «كولوفين» وهو يستشهد بفقرته المفضلة من مغامرات «سميليبيسمس»، – وقابلت «لويس الرهيب» الذي كان يحلم بزراعة خط من أشجار الزيتون في الأرض المقدسة، وبأن يمتلك عبيدًا. ولقد ذهب متأبطًا ذراع «آنِسْلم» الذي كان يبحث عن زهرة طفولته.. زهرة السوس الأرجوانية. وقابلت وأحببت «نينون» التي كانت تعرف بالأجنبية. كانت عيناها السوداوان تلمعان تحت شعرها الأسود، وكانت تغار من الأميرة «فاطمة» أميرة أحلامي، مع ذلك فمن المحتمل أنْ تكون هي فاطمة نفسها دون أن أعلم ذلك. وكما تقدمنا نحن في مسيرتنا، تقدم كذلك ذات مرة حجاج وأباطرة

صليبيون لتحرير قبر المخلص أو لدراسة السحر العربي. ولقد اتخذ الفرسان الإسبان نفس الطريق، وكذلك فعل الدارسون الألمان والرهبان الإيرلنديون والشعراء الفرنسيون.

وبرغم أن حرفتي في الحقيقة لم تكن تعدو أنْ تكون حرفة عازف كمان أو قصاص، فقد كنت مسؤولًا عن توفير الموسيقى لجماعتنا. ثم اكتشفت أنه لم يرفع من معنوياتنا ويزيد من قوتنا أن نكرس وقتًا طويلًا لتفصيلات صغيرة. لم أكن أعزف الكمان، وأقود جوقة فحسب، بل كنت أجمع كذلك الأغاني القديمة والتراتيل الجماعية. ولقد كتبت الألحان والقصائد لستة أصوات وثمانية أصوات، وقمت بتنفيذها. على أني لن أقدم لك تفاصيل عن ذلك.

لقد كنت مغرمًا بكثير من زملائي وقادتي، ولكن واحدًا منهم لم يشغل تفكيري فيما بعد بقدر ما فعل «ليو». على حين أنه من الواضح أن أحدًا لم ينتبه إليه حتى ذلك الوقت. لقد كان «ليو» واحدًا من خدامنا، وكانوا بالطبع متطوعين، شأننا نحن كذلك، لقد ساعد «ليو» في حمل الحقائب، وطالما خُصِص للخدمة الشخصية للرئيس. كان في هذا الرجل شيء ما يريح ويجذب في غير تطفل أو فضول مما جعله محبوبًا من الجميع. كان يؤدي عمله بمرح، وكان في العادة يغني أو يصفر وهو يعمل. وكان لا يُرى أبدًا إلا عند الحاجة إليه. كان في الحقيقة خادمًا مثاليًّا. وفضلًا عن ذلك، فقد تعلقت به جميع الحيوانات. لقد كان ينضم إلينا في أغلب الأحيان كلب أو

آخر بسبب «ليو». وكان يستطيع أنْ يروّض الطيور، وأنْ يجذب إليه الفراشات. إنَّ رغبته في الحصول على خاتم سليمان الذي يمكن أنْ يساعده على فهم لغة الطيور هي التي جذبته إلى الشرق. وبالمقارنة ببعض الشخصيات العديدة في «عصبتنا»، الذين بغير إهدارٍ لقيمتهم أو بالإقلال من إخلاصهم- كانوا مع ذلك يتسمون بالتزيد، أو الغرابة، أو الوقار أو الشطح، فإن «ليو» الخادم كان يبدو بسيطًا وطبيعيًّا، متألقًا بالصحة، ودودًا بغير ادعاء.

إن التفاوت والتنوع الكبير في ذكرياتي الخاصة، قد جعل تقريري هذا صعبًا للغاية. لقد قلت من قبل إننا كنا نسير أحيانًا كجماعة صغيرة فقط، وأحيانًا أخرى كنا نشكل فرقة أو حتى جيشًا، ولكني أحيانًا كنت أمكث في ناحية من النواحي مع عدد ضئيل من الأصدقاء أو حتى بمفردي تمامًا، بغير خيام، بلا قادة، بلا رئيس. بل لقد أصبحت حكايتي أكثر صعوبة، ذلك لأننا لم نكن نتجول فقط عبر المكان، وإنما عبر الزمن كذلك. كنا نتحرك نحو الشرق، ولكننا كنا نرتحل كذلك في العصور الوسطى والعصر الذهبي، لقد تجولنا في إيطاليا أو في سويسرا. في بعض الأيام كنا نقضي الليل في القرن العاشر، ونسكن مع البطارقة أو الحوريات. وفي الأوقات التي كنت أظل فيها وحيدًا ما أكثر ما وجدت نفسي مرة أخرى في أماكن ومع أناس من حياتي الماضية... لقد تجولت مع خطيبتي السابقة عند أطراف غابة الراين الأعلى، وعربدت مع

أصدقاء شبابي في «توبنجن» أو في «بال» أو في «فلورنس»، أو كنت صبيًّا، وذهبت مع زملاء في المدرسة نصطاد الفراشات أو نشاهد كلب الماء، أو كانت صحبتي تتكون من الشخصيات المحبوبة في كتبي، كان يركب بجواري «المانسور» أو «بارسينال» أو «ويتكو» أو «جولدموند» أو «سنكوبانزا» أو كنا ننزل ضيوفًا على «بارميكيدز». وعندما كنت أعود من جديد إلى المجموعة متلاقيًا بها في واد من الوديان أو في نطاقٍ آخر، وأسمع أغاني «العصبة» وأعسكر بجوار خيام القادة، كان يتضح لي في الحال أن سياحتي خلال طفولتي وركوبي مع «سنكوبانزا» إنما كانت تنتمي في جوهرها لهذه الرحلة. فإن هدفنا لم يكن الشرق وحسب، وربما لم يكن الشرق مجرد بلد وشيء جغرافي، وإنما كان بيت الروح وشبابه. لقد كان في كل مكان وليس في مكان، وكان وحدة كل الأزمنة، على أنني لم أتبين هذا إلَّا للحظة، وفي هذا يكمن السبب في سعادتي القصوى في ذلك الوقت. على أنه فيما بعد، عندما فقدت هذه السعادة أدركت بوضوح هذه الارتباكات دون أنْ أستمد منها أقل فائدة أو راحة، فعندما نفقد شيئًا ثمينًا لا يُعوض، نشعر أننا قد صحونا من حلم. وفي حالتي كان هذا الشعور صحيحًا بشكل غريب، ذلك أن سعادتي انبعثت من نفس السر الذي تنبثق منه السعادة في الأحلام. فقد انبثقت من الحرية في ممارسة جميع الأشياء المتخيلّة في وقت واحد، من سهولة التبادل بين الباطن والظاهر، من تغيير الزمان والمكان وتحريكهما كالمناظر على المسرح.

ولما كنا نحن إخوان «العصبة» نرتحل إلى كل أنحاء العالم بغير سيارات أو سفن، ولما كنا قد غزونا بإيماننا العالم الذي مزقته الحرب، وأحلناه إلى فردوس، فإننا قد استحضرنا بشكل إبداعي خلَّاق، الماضي والمستقبل والمتخَيَّل في اللحظة الراهنة.

مرة وراء أخرى كنا نقابل في «سوابيا» «وبُودِنْس» وسويسرا وفي كل مكان، أشخاصًا يفهموننا أو يعبرون على نحوٍ ما عن عرفانهم بالجميل لوجودنا ولوجود «عصبتنا»، ولوجود رحلتنا إلى الشرق. ولقد صادفنا بين مركبات الترام وبنوك زيورخ، سفينة نوح يحرسها العديد من الكلاب المسنة التي تحمل جميعًا نفس الاسم، والتي قادها بشجاعة «هانزسي» عبر المياه الضحلة لعصر هادئ حتى أوصلها إلى سليل نوح، صديق الفنون. ولقد ذهبنا إلى «ونترزر» وهبطنا إلى مقبرة «ستوكلين» السحرية، ونزلنا ضيوفًا على المعبد الصيني، حيث كان حاملو البخور يتألقون تحت «ماحا» البرونزي، والملك الأسود يلعب الناي بعذوبة، للحن المرتعش الصادر من ناقوس المعبد. وفي سفح جبال الشمس التقينا «بسوان مالي» إحدى مستعمرات ملك سيام حيث قدمنا القرابين فسكبنا الخمور، وأحرقنا البخور بين الأحجار وتماثيل بوذا النحاسية، معبرين عن عرفاننا بالجميل لاستضافتهم لنا.

ولقد كان الاحتفال الذي أقامته الجماعة في «برمجارتن» واحدًا من أجمل الخبرات، فقد أحاطت بنا الدائرة السحرية إحاطة وثيقة، وعندما كان يستقبلنا سيدا القلعة «تيلي» و«ماكس»، سمعنا «أونمار»

يعزف موسيقى موزار على البيانو الضخم في القاعة العلوية. ولقد وجدنا الساحات تزخر بالببغاوات وببعض الطيور المتكلمة الأخرى. وسمعنا الحورية «آرميدا» تغني عند النافورة. ولقد أومأ لنا العراف «لونجوس» برأسه الثقيل ذي الخصلات المتطايرة، بجانب الملامح الحبيبة «لهنري الأوفترديجين» وصاح الطاووس في الحديقة، وتحدث لويس بالإسبانية مع القطة الأسطورية، على حين أقسم «هانز ريزوم» بعد أنْ تكشفت له بعضُ أسرار الحياة أنه سوف يحج إلى قبر «شارل» العظيم. كانت واحدة من المراحل المظفرة في رحلتنا. وكنا قد أحضرنا الموجة السحرية معنا، فظهرت كل شيء. فالسكان سجدوا تعبدًا للجمال، وسيد القلعة راح ينشد قصيدةً عن منجزاتنا في اليوم السابق، وجاءت الحيوانات من الغابة وقبعت على مقربة من جدران القلعة، وتحركت الأسماك المضيئة في النهر في أسراب نشطة، وأطعمت بالكعك والنبيذ.

على أنَّ أفضل هذه الخبرات هي الجديرة حقًّا بأن تُروى، فهي تلك التجارب التي عبرت عن روح الأشياء. وقد يبدو وصفي لهذه التجارب ضحلًا، بل ربما سخيفًا، على أن كلَّ من شارك واحتفل بأيام «برمجارتن» سوف يؤكد كلَّ تفصيلة من التفاصيل، بل يضيف إليها تفاصيل أخرى أكثر جمالًا، وسأظل أتذكر دائمًا كيف تألق ريش الطواويس عندما بزغ القمر من بين الأشجار العالية، وتضوَّأت على الضفة الظليلة. كيف وقف «دون كيشوت» وحيدًا تحت شجرة

الكستناء بجوار النافورة، وبدأ نوبة حراسته الليلية الأولى، على حين أخذت آخر الشموع الرومانية في استعراض الألعاب النارية تتساقط بنعومة فوق أبراج القلعة المغمورة بضوء القمر، وأخذ زميلي «أبلو» وهو محلًّى بالزهور يطلق من الناي الفارسي لحنًا للبنات. أوه! من كان يتصور أنَّ الدائرة السحرية سوف تنفض هكذا سريعًا. ونحن جميعًا على وجه التقريب، وأنا كذلك.. حتى أنا، كان ينبغي أن نضل مرة أخرى في الصحاري الصامتة للواقع المحدد المرسوم، تماما كما يحدث للموظفين والبائعين الذين يعودون مرة أخرى إلى تكييف أنفسهم مع روتين العمل اليومي، بعد انتهاء حفلة أو نزهة في يوم أحد.

في تلك الأيام لم يكن أحدنا قادرًا على مثل هذه الأفكار. عبير الليلاك كان يتسلل إلى غرفة نومي من أبراج القلعة في «برمجارتن» وسمعت خرير النهر وراء الأشجار وتسلقت خارجًا من النافذة في جوف الليل منتشيًا بالسعادة والحنين. وتسللت من الفارس المكلف بالحراسة ومن الضيوف النائمين حتى بلغت شاطئ النهر.. حيث المياه المترقرقة.. والحوريات البيض المتضوئات أخذتني معهن، إلى الأعماق حيث يعشن في عالم رطب، مقمر، بللوري.. وهناك أخذن يلعبن في نعومة حالمة بالتيجان والسلاسل الذهبية المستخرجة من حجراتهن المخصصة للكنوز. لقد بدا لي أنني مكثت شهورًا في الأعماق المتلألئة. ومع ذلك فعندما طفوت وأخذت أسبح عائدًا إلى الشاطئ منتعشًا تمامًا، وكان ناي «أبلو» لا يزال يسمع من الحديقة

البعيدة والقمر لا يزال مرتفعًا في كبد السماء.. ورأيت «ليو» يلعب مع كلبين صغيرين أبيضين، وكان وجهه الذكي الطفولي يشع سعادة، وجدت «لونجوس» يجلس في الغابة، وعلى ركبتيه كتاب ذو أوراق جلدية، يكتب فيه بحروف يونانية وعبرية تتطاير منها التنانين، وتنطلق الثعابين الملونة. لم ينظر إليَّ، واستمر يرسم مستغرقًا في كتاباته الثعبانية الملونة. ولمدة طويلة أخذت أنظر في الكتاب عبر كتفيه المنحنيتين، فرأيت الثعابين والتنانين تتواثب من كتاباته.. وتحوم وتحوم ثم تختفي بهدوء في الغابة المظلمة. قلت له برقة: «لونجوس يا صديقي العزيز» فلم يسمعني. كان عالمي بعيدًا عن عالمه، وتحت الأشجار المقمرة كان «أنسلم» يتجول بعيدًا وهو يحمل زهرة سوسن في يده. كان مستغرقًا في أفكاره، يتفرس في كأس الزهرة الأرجواني ويبتسم له.

لقد عرتني الدهشة مرة أخرى، بل تألمت أثناء إقامتنا في «برمجارتن» من نفس الأمر الذي كنت قد لاحظته مرارًا أثناء رحلتنا دون أن ألتفت إليه تمامًا. كان بيننا كثير من الفنانين والرسامين والموسيقيين والشعراء. كان هناك «كلنجسدر» الممتلئ حماسة وحرارة، و«هوجوولف» القلق، و«لوتشرز» المتحفظ، و«برنتانو» الزاهر بالنشاط. ولكن برغم أنَّ شخصيات هؤلاء الفنانين كانت مليئة بالحيوية ومحبوبة، فإن شخوصهم الخيالية -دون استثناء- كانت أكثر حيوية، وأكثر جمالًا وسعادة، بل كانت بالتأكيد أكثر رقة وأكثر واقعية من الشعراء المبدعين أنفسهم. كان «أبلو» يجلس هناك حاملًا نايه في

براءة ساحرة وبهجة. ولكن الشاعر فيه انسل منه كالظل متجهًا إلى ضفة النهر، وظل هناك في شبه شفافية في ضوء القمر ينشد الوحدة، وأخذ «هوفمان» يجري هنا وهناك بين الضيوف مترنحًا، شبه ثمل يتحدث بكثرة، يبدو قزمًا متضائلًا. كان كذلك مثلهم جميعًا نصف حقيقي.. نصفه فقط كان هناك، لم يكن متجسدًا بشكل كامل، لم يكن حقيقيًّا بشكل كامل. وفي نفس الوقت، فإن «لندهورست» القائم بأعمال المحفوظات والسجلات كان يمزح مقلدًا التنانين، فكان يتنفس لهبًا باستمرار، وكان يفرغ الطاقة مثل السيارة. ولقد سألت الخادم «ليو» لماذا يبدو الفنانون في بعض الأحيان نصف أحياء فقط، على حين تبدو إبداعاتهم حية بغير منازع؟ ونظر إليَّ «ليو» مندهشًا من سؤالي، ثم ترك الجرو الذي كان يحمله بين ذراعيه قائلًا:

– إنه نفس الأمر مع الأمهات، فبعد أنْ يلدن أطفالهن ويرضعنهم، ويهبنهم الجمال والقوة، يصبحن هن أنفسهم غير ذوات أهمية، ولا يسأل أحد عنهن بعد ذلك أبدًا.

قلت له دون أن أفكر في الحقيقة كثيرًا فيما أقول:

– ولكن هذا محزن.

فقال «ليو»:

– ما أظن أن هذا أكثر مدعاة للحزن من كل الأمور الأخرى. ربما كان ذلك محزنًا، ومع ذلك فهو جميل أيضًا. وإنَّ القانون يحتم أنْ يكون كذلك.

قلت بتعجب: «القانون! أي قانون هذا يا «ليو»؟ إنه قانون الخدمة، إن الذي يرغب أنْ يعيش طويلًا، يجب أن يخدم، أما الذي يرغب في أن يحكم، فلا يعيش طويلًا.

– لماذا إذَنْ يسعى الكثيرون إلى الحكم؟

– لأنهم لا يفهمون، هناك قلة وُلدت لتكون سادة، وهؤلاء يظلون سعداء أصحاء. أما الباقون جميعًا ممن أصبحوا سادة عن طريق السعي فقط، فقد انتهوا إلى لا شيء.

– إلى أي لا شيء يا «ليو»؟

– إلى مصحة مثلًا.

فهمت القليل من هذا الكلام، ومع ذلك، فقد عَلقت الكلمات بذاكرتي، وتَرَكت فيَّ شعورًا بأنَّ «ليو» هذا يعرف كُلَّ الأمور على اختلافها وتنوعها، وأنه ربما يعرف أكثر منا، نحن الذين كنا في الظاهر سادته.

* * *

الفصل الثاني

كان لكل مسافر في هذه الرحلة التي لا تُنسى، رأيه الخاص فيما يتعلق بالأسباب التي دفعت بخادمنا المخلص «ليو» أن يقرر فجأة تركنا في منتصف المضيق الخطير «لموربيو أنفريوري»، وأنا لم أبدأ على نحو ما في التشكك وإعادة النظر في الظروف والمغزى العميق الذي أحاط بهذا الحدث، إلَّا بعد وقت طويل. ولقد بدا أيضًا أنَّ اختفاء «ليو»، هذا الحَدَث العرضيّ في ظاهره، وإن يكن في حقيقته بالغ الأهمية، لم يكن مصادفة بأي حال من الأحوال، وإنما هو حلقة في تلك السلسلة من الأحداث التي كان يسعى بها العدو الأزلي إلى أنْ ينزل المصائب بمشروعاتنا. في ذلك الصباح الرطب من الخريف عندما اكتشف اختفاء خادمنا «ليو»، وأنَّ البحثَ عنه سيظل جهدًا بغير جدوى، لم أكن أنا بالتأكيد الوحيد الذي شعر للمرة الأولى بكارثةٍ تتربص بنا وقَدَرٍ يتهددنا.

وأيًّا كان الأمر، فقد كان هذا هو الوضع حينذاك. فبعد أن عبرنا بجسارة نصف أوروبا وجزءًا من العصور الوسطى، عسكرنا في وادٍ صخري بالغ الضيق، وهو مضيق جبلي وعر على الحدود الإيطالية، أخذنا نبحث عن «ليو»، هذا الذي افتقدناه، بطريقة غامضة. وكلما أطلنا في البحث عنه، ازدادت آمالنا شحوبًا في العثور عليه مرة أخرى. مع انقضاء النهار أصبحنا أكثر فأكثر نهبًا لفكرة أنَّ المسألة لا تتعلق فحسب بواحد محبوب ظريف من خدامنا أصيب في حادث أو فرَّ هاربًا أو أسره عدو من الأعداء، وإنما هي بداية المتاعب والعلامة الأولى لعاصفةٍ توشك أن تعصف بنا.

قضينا اليوم كله، حتى الغسق بحثًا عن «ليو». ارتدنا المضيق بأكمله. ولقد أنهكتنا هذه الجهود واجتاحنا جميعًا شعور باليأس وعدم الجدوى، ومع هذا فكم كان غريبًا وغير معقول أنْ تأخذ أهمية الخادم المفقود في الازدياد ساعة بعد أخرى، ويصبح فقدُنا له مصدرًا للمصاعب والعقبات. لم يكن الأمر أنَّ كل حاج، بل في الواقع كل أعضاء الرحلة، قلقين فحسب على الشاب المليح اللطيف الخدوم، ولكن تبين أنه كلما أصبح غيابُ «ليو» أكثر تأكدًا، اتضح أكثر فأكثر أنه لا سبيل إلى الاستغناء عنه. فبغير «ليو».. بغير وجهه المليح ومزاجه اللطيف وأغانيه.. بغير تحمسه لمهمتنا العظيمة، فإن هذه المهمة نفسها تبدو وقد فقدت معناها بطريقة مبهمة. هكذا كان وقع الأمر على نفسي على الأقل. فبرغم كل التوترات النفسية، وبرغم انقشاع كثير

من الأوهام الصغار أثناء الشهور السابقة للرحلة، لم تصبني إطلاقًا لحظة ضعف داخلي أو شكوك حادة. فليس هناك قائد ناجح أو طائر في سرب من أسراب السنونو المسافرة إلى مصر يمكن أن يكون متيقنًا من هدفه.. من رسالته.. من سلامة أفعاله وتطلعاته، كما كنت أنا في هذه الرحلة، أما الآن في هذا الموضع المقدّر علينا حيث كنت أسمع باستمرار نداء الحراس وإشاراتهم طوال يوم كامل من أيام أكتوبر الكالحة والوضيئة، وأتراقب لحظة بعد أخرى بانفعال متزايد وصول الأنباء، فلا أتلقى منها إلا ما يخيب الآمال. وأتلفّت حولي فلا أرى إلا وجوهًا حائرة، فكان يتملكني لأول مرة مشاعر الحزن والتشكك. وكلما قويت هذه المشاعر، ازددت وضوحًا بأنني لم أفقد فحسب إيماني في العثور على «ليو» مرة أخرى، بل بأنه قد أصبح كل شيء يفتقد إلى الثقة واليقين، لقد اهتزت قيمة الأشياء ومعناها: زمالتنا وإيماننا وقَسَمنا ورحلتنا إلى الشرق وحياتنا كلها.

ولو كنت مخطئًا في زعمي بأننا جميعًا قد انتابتنا هذه المشاعر، بل لو كنت بالتالي مخطئًا حقًّا في مشاعري الخاصة وخبراتي الداخلية وفي أشياء كثيرة واجهتنا في الواقع بعد ذلك بكثير، ونسبتها خطأً إلى ذلك اليوم، فسوف تظل -برغم كل شيء- تلك الواقعة الغريبة الخاصة بحقيقة «ليو»، بمعزل عن كل الحالات المزاجية الشخصية سوف يظل ذلك الأمر بحق غريبًا ومدهشًا ومصدرًا متزايدًا للقلق. فحتى أثناء هذا اليوم في مضيق «موربيو» وحتى خلال بحثنا المتلهف عن

الرجل المفقود، افتقد أحد الرجال في البداية، ثم تلاه آخر شيئًا مهمًّا.. شيئًا لا غنى في الحقيقة التي لم يكن من الممكن العثور عليها في أي مكان، وبدا أنَّ كل شيء مفتقد لا بد أنه في حقيبة «ليو». وبالرغم من أن «ليو» مثلنا جميعًا ما كان يحمل إلا الجراب الكتاني العادي فوق ظهره.. مجرد كيس واحد بين حوالي ثلاثين كيسًا آخرين، فقد بدا أنه في هذه الحقيبة الواحدة المفقودة توجد كل الأشياء المهمة حقًّا، التي حملناها معنا في رحلتنا.

إنه لضعف إنساني معروف أن تبالغ في قيمة الشيء المفقود، ويبدو في نظرنا أكثر أهمية وضرورة من تلك الأشياء التي لا تزال في حوزتنا. وبرغم ما تبيناه من أنَّ كثيرًا من الأشياء التي أزعجنا اختفاؤها في مضيق «موربيو» إزعاجًا شديدًا، قد أصبحت بحق فيما بعد، أو ثبت أنها غير ذات أهمية، ومع ذلك فالحقيقة المؤسفة أننا كنا في ذلك الوقت منزعجين انزعاجًا له ما يبرره لفقد كثير من الأشياء البالغة الأهمية.

على أن الشيء الذي كان أكثر غرابة وتفردًا، هو أنَّ الأشياء التي كانت مفتقدة، سواء ظهرت بعد ذلك أم لا، قد أخذت تكتسب أهميتها بالتدريج، وشيئًا فشيئًا أخذت الأشياء التي اعتقدنا خطأً أنها قد فقدت والتي أوليناها خطأً كذلك كثيرًا من الأهمية، تعود مرة أخرى إلى مخازننا. ومن أجل أن نفسر هنا بوضوح تام ما كان حقيقيًّا، ومع ذلك يستعصي عليَّ التفسير، ويجب القول بأنه قد تبين لنا خلال مسار رحلتنا

بعد ذلك، أنَّ الأدوات والنفائس والبطاقات والوثائق التي كانت قد فقدت جميعًا، هي أشياء لا يمكن الاستغناء عنها، وما أكثر ما خجلنا عندما أدركنا ذلك. ويبدو بصراحة تامة أنَّ كل واحد منا قد أطلق العنان لخياله ليقنع نفسه بالخسائر الفادحة التي لا سبيل إلى تعويضها، كما لو أنَّ كل واحد منا حاول أن يتصور أنه قد فقد أعز ما لديه وأنَّ عليه أن يبكيه. لقد فقد أحدنا جواز السفر وفَقَدَ الآخر الخرائط.. وفقد الثالث خطاب اعتماد للخليفة... وهكذا تنوعت الأشياء المفقودة.. وبالرغم من أنه قد اتضح في النهاية أنَّ جميع الأشياء التي اعتقد أنها فُقدت، لم تُفقد أبدًا، أو لم تكن ذات أهمية أو ضرورة، فقد ظل شيء واحد محتفظًا بقيمة حقيقية، وبأهمية بالغة.. كان وثيقة أساسية بشكل مطلق ولا سبيل إلى الاستغناء عنها. ولقد تأكد فقدها بغير جدال. وقد أخذنا نتبادل الرأي بشكل سطحي حول ما إذا كانت تلك الوثيقة التي اختفت باختفاء الخادم «ليو» كانت حقًّا في حقائبنا، كان هناك اتفاق تام حول القيمة الكبرى لهذه الوثيقة، وأنها لا يمكن أن تعوض. ومع هذا، فما أقل من كان بيننا (وأنا من هذا النفر القليل) من يستطيع الجزم بأن هذه الوثيقة قد حُملت معنا في الرحلة. أكد رجل واحد أن وثيقة مشابهة كانت بالتأكيد في كيس «ليو» الكتاني، وأنها لم تكن الوثيقة الأصلية على الإطلاق، وإنما من الطبيعي أن تكون مجرد صورة. وأعلن آخرون أنه لم تكن هناك أي نيةٍ لحمل الوثيقة نفسها أو صورة عنها في الرحلة؛ إذ إن ذلك يمكن أن يثير السخرية عن معنى الرحلة كلها. وقد أدَّى هذا الرأي إلى مجادلات حامية، ثم اتضح بعد ذلك أنَّ هناك عديدًا من

الآراء المتصارعة حول الأماكن التي تكون فيها الوثيقة الأصلية (لم يكن الأمر المهم أنه ليس لدينا إلا الصورة أو أننا قد فقدنا الوثيقة أو لم نفقدها)، ولقد أعلن واحد منا أنَّ الوثيقة قد أُودعت لدى الحكومة في «كيفهوزر»، فقال رجل آخر لا، وأضاف بأنها مدفونة في الوعاء الذي يحتوي على رماد رئيسنا المتوفى، وتصدى ثالث قائلًا بأنَّ هذا عبث وبأن وثيقة «العصبة» قد رسمها الرئيس بالأحرف الأصلية التي لا يعرفها غيره، وأنها قد حرقت مع جسده تنفيذًا لوصيته، ولم يكن للتساؤلات الخاصة بالوثيقة أي معنى، فما كان يستطيع أحد أنْ يقرأها بعد موت الرئيس. على أنه كان من الضروري بغير شك أن نتأكد أين توجد الترجمات الأربع (أو الست في أقوال أخرى) لهذه الوثيقة، والتي صيغت أثناء حياة الرئيس وتحت إشرافه. لقد قيل إن الترجمات الصينية واليونانية والعبرية واللاتينية موجودة، وإنها أودعت في الأربع عواصم القديمة. أثيرت أفكار وآراء عديدة أخرى، وتمسك بها كثيرون بعناد، واقتنع آخرون بأحد الآراء في البداية، ثم بحجة معارضة أخرى، ثم سرعان ما غيروا رأيهم مرة أخرى. وباختصار، فمنذ ذلك الوقت تلاشى اليقين وتلاشت الوحدة في مجموعتنا، وإنْ ظلت تجمعنا الفكرة العظمى.

كما أتذكر جيدًا تلك المحاولات الأولى! كانت شيئًا جديدًا لم يعرف في عصبتنا التي ظلت متحدة تمامًا حتى ذلك الحين. وكانت المجادلات في بدايتها على الأقل تجري باحترام وأدب. لم تؤدِّ بادئ

ذي بدء إلى صراعات حادة أو مؤاخذات أو شتائم شخصية. فقد كنا لا نزال إخوة متلازمين متحدين في جميع أنحاء العالم. إنني ما زلت أسمع أصواتهم، ما زلت أبصر أرض معسكرنا حيث جرت أولى هذه المناقشات.. أبصر أوراق الخريف الصفراء تتساقط هنا وهناك بين الوجوه الجادة على غير العادة. إني أرى واحدًا يركع على ركبتيه وآخر فوق قبعة. كنت أستمع وقد ملأني إحساس متزايد بالضيق والخوف. ولكن بين كل هذه الآراء المتبادلة كنت واثقًا بشكل كامل ثقة داخلية بمعتقدي، وإن كانت ثقتي على نحو حزين أن الوثيقة، أقصد الحقيقة كانت في كيس «ليو»، وأنها اختفت وفقدت معه. ومهما كان هذا التصور قائمًا، فمع هذا، فقد كان معتقدًا. لقد كان معتقدًا راسخًا وأعطاني شعورًا باليقين.

ولقد فكرت جادًّا في ذلك الوقت أنني لن أتردد في أن أستبدل بهذا المعتقد معتقدًا آخر أكثر استبشارًا، على أنني لم أتبين إلا في وقت متأخر عندما فقدته كذلك، بل وأصبحت متشككًا في كل دروب الأفكار.. ماذا كنت أمتلك بمعتقدي هذا.

أدرك أن القصة لا يمكن أن تروى على هذا النحو، ولكن، كيف يمكن أن تروى؟ قصة تجاوب فريد بين العقول.. قصة حياة روحية رائعة رفيعة كهذه.. كم أتوق بشدة، كآخر من بقي من هذه الجماعة أنْ أدخر بعض التسجيلات لقضيتنا العظمى. أشعر أنني مثل الخادم العجوز الذي قد يكون وحده الباقي من الذي يتذكر حلقات مثيرة

من الأعمال والأعاجيب. من الصور والذكريات التي سوف تختفي باختفائه إذا لم ينجح في توريث بعضها للأجيال اللاحقة عن طريق الكلمة أو الصورة.. عن طريق الحكاية أو الأغنية، ولكن بأي وسيلة يمكن أنْ تُروى قصة الرحلة إلى الشرق؟ لا أعرف، فقد أفْضَت بي المحاولة الأولى التي بدأتها بأفضل النوايا الطيبة إلى ما هو غير محدود أو غير متصور. أردت ببساطة محاولة رسم ما أتذكره من مجرى الأحداث والتفاصيل الجزئية لرحلتنا إلى الشرق. لا شيء يبدو أبسط من ذلك. ولم أكد أبدأ الآن حتى توقفت بسبب حادثة واحدة بسيطة لم أفكر فيها أصلًا.. وهي حادثة اختفاء «ليو». وبدلًا من أن أجد بين يدي نسيجًا متماسكًا، وجدتني أمسك بحزمة من آلاف الخيوط المعقدة التي تشغل مئات الأيدي لسنوات وسنوات كي تتمكن من حلها وتفريدها، هذا إذا لم تتنسل وتنفرط الخيوط على نحو بشع بين الأصابع حالما تمسك بها وتسعى لتخليصها برقة.

إنني لأتخيل أن كل مؤرخ يتعرض لأحاسيس مشابهة عندما يبدأ في تسجيل أحداث بعض الفقرات ويرغب في تصويرها بصدق. أين مركز الأحداث؟ أين المحاور المشتركة التي تدور حولها، والتي تمنحها الترابط لكي يتحقق شيء يشبه الترابط؟ شيء يشبه العلة والسببية. ولكي يتكشف معنى ما يمكن أن يُحكى ينبغي على المؤرخ أنْ يصطنع وحدات.. يصطنع بطلًا.. يصطنع قومية.. يصطنع فكرة. وينبغي له أن يتيح لهذه الوحدة المصطنعة أن يتحقق لها في

الواقع الفعلي ما يتحقق للناس العاديين الخاملي الذكر. وإذا كان من الصعوبة بمكان أن نحكي بشكل مترابط عن طائفة من الأحداث التي حدثت بالفعل، وتأكدت فإنَّ الأمر في حالتي يزداد صعوبة، ذلك أن كل شيء يصبح موضع تساؤل وخلاف بمجرد أن أتمعنه عن قرب. كل شيء يفلت بعيدًا ويتحلل تمامًا كمجموعتنا التي كانت أقوى مجموعة في العالم، ثم تمكنت من أن تتحلل. ولم يعد هناك وحدة أو مركز أو نقطة تدور العجلة حولها.

لقد كانت رحلتنا إلى الشرق، وعصبتنا، التي هي أساس مجموعتنا أكثر الأشياء أهمية، بل في الحقيقة الشيء المهم الوحيد في حياتي، والتي تبدو حياتي الشخصية بالقياس إليها غير مهمة على الإطلاق. وإذ أريد الآن أنْ أمسك بثبات وقوة بهذا الشيء البالغ الأهمية، وأنْ أصفه، أو أصف على الأقل جانبًا منه، أتبين أن كل شيء ليس إلا كتلة من الصور المنفصلة التي كانت قد انعكست في شيء ما، وهذا الشيء هو أنا نفسي. وهذه النفس، هذه المرآة كلما حدقت فيها تبينت أنها لا شيء غير السطح الخارجي لزجاج مسطح. وضعت قلمي جانبًا بنية صادقة وأمل أن أواصل غدًا، أو في أي وقت آخر أو بالأحرى أنْ أبدًا من جديد. على أنه وراء ما انتويته وما أَمَّلته، ووراء رغبتي الشديدة حقًّا في أن أقص حكايتنا. كان لا يزال يجثم شك كبير، إنه الشك الذي نبت أثناء البحث عن «ليو» في وادي «موربيو»، لم يسألني هذا الشك فحسب: «هل يمكن لحكايتك أن تُقص؟»، وإنما سألني كذلك: «هل

كان من الممكن ممارستها ومعاناتها؟». إننا لنتذكر رجالًا شاركوا في الحرب العظمى قد خالجت قلوبهم بالضرورة نفس هذه الشكوك في كثير من الأحيان، برغم أنه لم تكن تنقصهم الوقائع والحكايات المؤكدة.

* * *

الفصل الثالث

منذ أن كتبت ما سبق، أخذت أعاود النظر في مشروعي مرة وراء الأخرى، محاولًا أن أجد مخرجًا من الصعوبات التي تواجهني. ولكنني فشلت في الوصول إلى حل.. فما زلت مشوشًا أواجه الخواء والفوضى. على أنني أقسمت ألَّا أذعن للفشل، وفي ذات اللحظة التي أقسمت فيها على ذلك، مرت في ذهني ذكرى سعيدة كشعاع من ضوء الشمس. ولقد بدا لي أنها تماثل ما شعرت به عندما بدأنا رحلتنا.. تماثله تمامًا، ففي تلك الفترة، أخذنا على عاتقنا شيئًا واضح الاستحالة، وفي تلك الفترة كان من الواضح كذلك أننا نرتحل في الظلام، دون أن نعرف وجهتنا ودون أنْ تكون لنا أطماع. ومع ذلك، فقد كنا نملك داخلنا شيئًا أقوى من الحقيقة أو من الاحتمال، هو إيماننا لمعنى ما نقوم به، وبضرورته. ولقد ارتعشت عندما تذكرت هذا الشعور القديم.. ومع هذه الرعشة السعيدة، أصبح كل شيء واضحًا.. وبدا كل شيء ممكنًا مرة أخرى.

ومهما حدث، فقد قررت أنْ أمارس إرادتي. ولو كان عليَّ أن أعيد كتابة قصتي العويصة عشر مرات أو مائة مرة، وأنْ أصل دائمًا إلى نفس الطريق المسدود، فعندئذ، يجب عليَّ أن أبدأ مرة أخرى ولمائة مرة. وإذا لم يكن في مقدوري تجميع الصور من جديد في تكوين كلي ذي دلالة، فسوف أقدم بأمانة قدر استطاعتي، كل جزء على حدة. ولما كان هذا لا يزال ممكنًا حتى الآن، فسوف أظل مراعيًا للمبدأ الأول لتلك المرحلة الأولى العظيمة، ولن أعتمد على العقل أو أترك نفسي نهبًا لبلبلة، وسأعرف دائمًا أنَّ الإيمان أقوى من الحقيقة المزعومة.

في هذه الأثناء حاولت بإخلاص أن أقترب من هدفي بطريقة علمية ومعقولة. فذهبت لرؤية صديق لي من أصدقاء الشباب، يسكن في هذه المدينة، ويعمل محررًا في جريدة.. إنه يُدعى «لوقا». ولقد اشترك في الحرب العظمى، ونشر كتابًا عنها بيع على نطاق واسع، استقبلني «لوقا» بطريقة ودية، وكان واضحًا أنه سُرَّ برؤية أحد أصدقاء الدراسة القدامى مرة أخرى، ولقد أجريت معه حديثين طويلين.

حاولت أنْ أجعله يتفهم موقفي. وأنفت من كل مراوغة أو تهرب. أخبرته بصراحة أنني ساهمت في ذلك المشروع العظيم الذي لا بد وأنه قد سمع عنه كذلك بما يسمى «بالرحلة إلى الشرق» أو برحلة «العصبة»، أو على أي نحو كان يوصف للجمهور في ذلك الوقت. وابتسم ساخرًا:

– آه.. نعم.

إنه يذكرها بغير شك، كان يطلق في أغلب الأحيان على هذه الرحلة الفريدة بين حلقة أصدقائه، اسم «حرب الأطفال الصليبية»، وبما كانت هذه التسمية تكشف عن جانب من الاحتقار، فلم تؤخذ هذه الحركة مأخذ الجد في حلقته، كانت تقارن في الحقيقة، ببعض الحركات الصوفية أو الدينية، وكانوا يدهشون دهشة بالغة للنجاحات الدورية التي أحرزتها هذه الرحلة، شأنها في ذلك شأن تلك الحركات. فقد قرأوا باحترام لائق عن الرحلة الشجاعة خلال «سوابيا» العليا، وعن الانتصار في «برمجارتن»، وعن استسلام قرية جبل «تيس»، وتساءلوا في بعض الأحيان عمَّ إذا كانت الحركة تود أنْ تضع نفسها في خدمة حكومة جمهورية. على أنه من المؤكد أنَّ المسألة قد خفتت بعد ذلك. لقد انسحب من الحركة كثير من قادتها السابقين، وبدا على نحو ما، أنهم قد أخذوا يخجلون منها، ويريدون نسيانها تمامًا. وأصبحت الأخبار تتواتر عنها بشكل متقطع هزيل، بل كانت دائمًا متناقضة على نحو غريب. وهكذا وُضع الموضوع كله جانبًا كأمر واقع، ولم يعد يُذكر، تمامًا مثل ما حدث لكثير من الحركات المتطرفة السياسية أو الدينية أو الفنية التي ظهرت في تلك السنوات التي أعقبت الحرب. ففي ذلك الوقت ظهر كثير من الأنبياء، وكونت كثير من الجمعيات السرية تحمل آمالًا تبشيرية، ثم سرعان ما اختفى هذا كله من جديد، دون أن يخلف وراءه أي أثر.

كان رأيه واضحًا.. وكان رأيه هو رأي رجل شاكٍّ بكل معنى

الكلمة. ومن المحتمل أن الآخرين جميعًا ممن سمعوا قصة الرحلة ولم يشاركوا فيها، كانوا يتبنون نفس الرأي عن «العصبة»، وعن الرحلة إلى الشرق. لم يكن من واجبي أن أهدي «لوقا» إلى الطريق الصحيح. على أني قدمت إليه بعض المعلومات الصحيحة، مثال ذلك: أن عصبتنا لم تكن بأي حال من الأحوال ثمرة لسنوات ما بعد الحرب، وإنما كانت تمتد عبر تاريخ العالم كله، وأحيانًا تكون على وجه اليقين تحت السطح، وإن لم تفقد خطها المتصل، بل إن بعض مظاهر الحرب العظمى لم تكن غيرَ مراحل في تاريخ عصبتنا، وفضلًا عن ذلك فإن «زارادشت» و«لاوتس» و«أفلاطون» و«أكسينوفون» و«فيثاغورس» و«ألبرت العظيم» و«دون كيشوت» و«تريسترام شازري» و«نوفاليس»، و«بودلير» قد شاركوا في تأسيس عصبتنا وكانوا إخوة فيها. وابتسم «لوقا» على النحو الذي توقعته تمامًا.

قلت له:

– حسنًا، أنا ما جئت هنا لأعلمك وإنما لأتعلَّم منك. إن لديَّ رغبة حارة في أن أكتب، لا تاريخ العصبة (فحتى جيش بأكمله من العلماء على درجة عالية من الكفاءة والاستعداد، لن يكونوا مؤهلين لتحقيق ذلك)، وإنما أنْ أحكي ببساطة تامة قصة رحلتنا. على أنني فاشل تمامًا في الاقتراب من الموضوع. إنها ليست مسألة كفاءة أدبية، فأنا فيما أعتقد أملكها، وفضلًا عن ذلك فليست لي طموحات في هذا الشأن. لا.. إنما الأمر يرجع إلى أنَّ الحقيقة التي مارستها

وعانيتها ذات مرة مع رفاقي، لم يعد لها ثمة وجود بعد. وبرغم أنَّ ذكرياتها هي أثمن ذكرياتي وأشدها حيوية وحرارة، فإنها تبدو بعيدة للغاية. إنها تتألف من نسيج جد مختلف مما يجعلها تبدو وكأنها نشأت في كواكب أخرى في عصور أخرى، أو كأنها لم تكن غير هلوسات.

صاح «لوقا» بحماس:

- أستطيع أن أفهم هذا.

لقد بدأ حديثنا للتو يثير اهتمامه.

- كم أفهم هذا جيدًا، فهذا تمامًا ما أثار انفعالي فيما يتعلق بتجاربي في الحرب. كنت أتصور أنني مارست هذه التجارب وعانيتها بوضوح وحيوية، ولقد كنت أكاد أتفجر بصورها.. وكان تتابع الفيلم في رأسي يبدو وكأن طوله أميال. ولكنني عندما جلست إلى مكتبي.. على كرسي بجوار منضدتي.. كانت القرى والغابات الممحاة وارتعاشات الأرض من جراء تساقط القنابل الثقيلة، واجتماع التدني والعظمة بين الخوف والبطولة، بين لمعان الأحشاء ولمعان الرؤوس، وبين الفزع من الموت والمزاح الثقيل.. كانت جميعها صورًا تتراءى لي بعيدة بعدًا شاسعًا.. مجرد حلم، وما كانت ترتبط بأي شيء وما كان من الممكن إدراكها في الحقيقة. أتعرف أنني برغم ذلك ألفت أخيرًا كتابي عن الحرب وأنه يُقرأ الآن ويناقش كثيرًا. ولكن أتعرف أنني لا أعتقد أنَّ عشرة كتب مثله، كل واحد منها أفضل من كتابي وأكثر

حيوية منه عشر مرات، يمكن أنْ ينقل أي صورة حقيقية للحرب لأكثر القراء جدية، ما لم يكن هذا القارئ بنفسه قد مارس تجربة الحرب وعاناها. ولم يكن هناك كثيرون ممن فعلوا ذلك، حتى هؤلاء الذين شاركوا فيها، فإنهم لم يمارسوا التجربة ولم يعانوها طويلًا. وإذا كان قد فعل ذلك الكثيرون حقًّا، فإنهم قد نسوها مرة أخرى. ليس بعد تعطش الإنسان إلى ممارسة الأشياء ومعاناتها، ما هو أقوى من تعطشه إلى النسيان.

وسكت «لوقا» وبدا عليه الارتباك واستغرق في التفكير. لقد أكدّت كلماته تجاربي وأفكاري الخاصة. وسألته بعد فترة بحذر:

– كيف أمكنك إذَنْ أنْ تؤلف الكتاب؟

فكر لحظة، وأفاق من تأملاته قائلًا:

– كان هذا في مقدوري فحسب؛ لأنه كان ضروريًّا. كان عليَّ إما أنْ أكتب أو أركن لليأس.. لقد كان السبيل الوحيد لإنقاذي من العدم والخواء والانتحار. لقد كتبته تحت هذا الضغط، ونلت به الشفاء المتوقع، لسبب بسيط هو أني كتبته بصرف النظر عن أنه كان كتابًا جيدًا أو سيئًا. كان هذا هو الشيء الوحيد المهم، وعندما كنت أكتبه، لم أكن في حاجة إلى أنْ أفكر في أي قارئ آخر غير نفسي، أو على الأكثر في زميل حميم من زملاء الحرب هنا و هناك. وعلى وجه اليقين لم أفكر أبدًا حينذاك فيمن عاشوا بعد الحرب، وإنما كنت أفكر دائمًا فيمن سقطوا أثناءها. وعندما كنت أكتب، كنت كمن أصيب

بهذيان أو خبل، كنت محاطًا بثلاثة أو أربعة رجال ذوي أجساد مشوهة مبتورة، وعلى هذا النحو أنتجت الكتاب.

وعلى حين فجأة قال، وكان ذلك في ختام حديثنا الأول:

– سامحني، لا أستطيع أن أقول عنه أكثر من ذلك، ولا كلمة واحدة، لا أستطيع، لن أفعل. مع السلامة.

ودفعني إلى الخارج.

استعاد «لوقا» هدوءه وتماسكه في المقابلة الثانية، وكانت تعلو شفتيه نفس الابتسامة الساخرة، ومع هذا، فقد لاح لي أنه أخذ يتناول مشكلتي بجدية، ويتفهمها بشكل كامل. قدم بعض المقترحات التي بدت على أي الحالات قليلة الفائدة بالنسبة لي. وفي نهاية المحادثة الثانية والأخيرة، قال لي على نحو يكاد يكون عرضيًّا:

– اسمع.. إنك تعود باستمرار لحادثة الخادم «ليو»، وأنا لا أحبها. يبدو أنها تمثل عقبة في طريقك، حرر نفسك، ألق بـ«ليو» بعيدًا، يبدو أنه قد أصبح فكرة ثابتة.

وأردت أن أجيب عليه قائلًا بأنه لا يمكن لأحد أن يؤلف أي نوع من الكتب بغير أفكار ثابتة، وبدلًا من أن أفعل ذلك، بادرني هو بسؤال غير متوقع تمامًا:

– هل كان حقًّا يُدعى «ليو»؟

تجمع العرق فوق جبيني.

أجبته:

– نعم. بالطبع كان يُدعى «ليو».

– هل كان هذا هو اسمه الشخصي الأول؟

وتلعثمت.

– لا.. كان اسمه الشخصي الأول.. كان.. لم أعد أعرفه.. لقد نسيت. «ليو» كان لقبه العائلي، وهذا ما كان يدعوه به الجميع.

وبينما كنت أتكلم، أمسك «لوقا» بكتاب سميك على مكتبه، وأخذ يقلب الصفحات. وبسرعة مذهلة وجد شيئًا ووضع بأصبعه على موضع في صفحة مفتوحة من الكتاب كانت دليلًا. وحيث وضع إصبعه برز اسم «ليو».

فقال ضاحكًا:

– انظر ها نحن لدينا الآن رجل يُدعى «ليو».. «ليو أندرياس ليو» ٩٦ أ. سايلنجرابن، إنه اسم غير عادي. ربما يعرف هذا الرجل شيئًا عن «ليو» الذي يعنيك.. اذهب لمقابلته.. ربما يستطيع أنْ يخبرك عما تريد معرفته.. أنا لا أعرف سامحني وقتي ضيق.. إنني مسرور جدًّا لرؤيتك.

عندما أغلقت بابه ورائي، كنت أكاد أسقط من الذهول والانفعال. لقد كان على حق، ما كان في مقدوري أن أحصل منه على شيء أكثر مما حصلت عليه.

ذهبت إلى «سايلنجرابن» في اليوم نفسه، بحثت عن المنزل، وتحريت عن السيد «أندرياس ليو». كان يسكن في الطابق الثالث.. كان يوجد أحيانًا في المنزل في أيام الآحاد وفي الأمسيات. أما أثناء النهار، فيذهب للعمل. تحريت عن نوع العمل الذي يقوم به. قالوا إنه يقوم بهذا العمل أو ذاك أو غير ذلك من الأعمال الأخرى، فهو يستطيع أن يقوم بتجميل أصابع الأيدي وتطبيب الأطراف والتدليك، وهو يركِّب المراهم والأدوية النباتية. وفي الأوقات الصعبة، عندما لا يتوافر إلا القليل من العمل، فإنه في بعض الأحيان يشغل نفسه كذلك بتدريب الكلاب وحلاقة شعورها وتشذيبها. غادرت المكان مقررًا أنه من الأفضل ألَّا أزور هذا الرجل أو على ألا أخبره عن نواياي بأي حال من الأحوال، ومع ذلك، فقد تملكني الفضول لرؤيته. ومن ثم فقد أخذت أراقب المنزل في الأيام القليلة التالية أثناء نزهاتي المتكررة، وسأذهب هناك اليوم أيضًا؛ إذ إنني حتى الآن لم أنجح في مقابلة «أندرياس ليو» وجهًا لوجه.

آه! إن هذا الموضوع برمته يدفعني دفعًا إلى اليأس، إلا أنه يجعلني سعيدًا، أو على الأصح، يغمرني بالإثارة والتحفز المشوق، إنه يسبغ الأهمية على نفسي وعلى حياتي مرة أخرى، وهذا ما كنت أفتقده بشدة.

من الممكن أن يكون على حق، وعلماء النفس يعزون كل الأفعال الإنسانية إلى الرغبات الأنانية، على أنه ليس في مقدوري أن أقتنع حقًّا

بأن رجلًا يخدم قضيةً طول حياته وينكر على نفسه ملذاتها وسعادتها ويضحي بنفسه في سبيل شيء معين، يسلك حقًّا نفس الطريقة التي يسلكها رجل يتاجر في العبيد أو يعقد صفقات في المؤن الحربية ويبدد دخله على حياة المتع والملذات. على أنني ينبغي بغير شك أن ألقي سوء العقبى من جراء هذا الرأي، وأنْ أهزم في أي مجادلة مع عالم نفسي كهذا. فعلماء النفس بالطبع أناس يفوزون دائمًا. قد يكونون على حق فيما يتعلق بي. وعلى هذا فكل شيء اعتبرته خَيِّرًا ورفيعًا، وبذلك من أجله التضحيات، لم يكن إلَّا مجرد رغباتي الأنانية. والحق أنني كل يوم أستبصر بوضوح أكثر أنانيتي التي تتمثل فيما أستهدفه من نوع ما من تاريخ الرحلة إلى الشرق. لقد تصورت في البداية أنني أخذت على عاتقي مهمة شاقة باسم قضية نبيلة. على أنه يتضح لي أكثر فأكثر أنني بالوصف الذي أقوم به، إنما أستهدف نفس الأمر فحسب الذي استهدفه «لوقا» بكتابه عن الحرب، وأعني به أنني أُنقِذُ حياتي بأن أسبغ عليها معنى مرة أخرى.

ليتني أستطيع فحسب أن أبصر طريقي.. ليتني أستطيع فحسب أن أخطو خطوة واحدة إلى الامام.

لقد قال لي «لوقا»: «ألق بـ«ليو» بعيدًا.. حرر نفسك من «ليو»»، لو كان في مقدوري أن أفعل هذا، لاستطعت كذلك أن ألقي برأسي ومعدتي بعيدًا تخلصًا منهما.

يا إلهي العزيز.. ساعدني قليلًا.

الفصل الرابع

كل شيء يبدو الآن مختلفًا مرة أخرى. ولم أعد أدري بعد، إن كان هذا قد ساعدني في مواجهة مشكلتي أم لا. على أني قد مارست تجربة، فقد حدث لي أمر لم أكن أتوقعه أبدًا، أم لا.. ألم أكن حقًّا أتوقعه؟ ألم أكن أتشوق إليه وأتمناه؟ وفي الحقيقة أخشاه؟ نعم فعلت، ومع هذا يظل ما حدث غريبًا وغير محتمل الحدوث إلى حد كبير.

لقد ذهبت إلى «سايلنجرابن» مرارًا، عشرين مرة أو أكثر.. ذهبت في الأوقات التي تصورت أنها ملائمة، وما أكثر ما تسكعت بجوار المنزل رقم ٩٦ أ، تدفعني دائمًا فكرة: «سأحاول مرة أخرى، وإذا لم أحصل على شيء منها، أعود ثانية»، ومع هذا، فلقد ذهبت المرة وراء الأخرى. وفي اليوم السابق على الأمس تحققت رغبتي.. آه، ويا له من تحقق.

عندما اقتربت من المنزل الذي بت أعرف الآن كل شرخ وكل شق في دهانه الرمادي الغامق، سمعت صفير لحن لأغنية قصيرة أو رقصة.. لحن معروف يأتي من النافذة العلوية. لم أكن أعرف أي شيء بعد! ولكنني أخذت أنصت. وأثار اللحن ذاكرتي، وأخذت بعض الذكريات الهاجعة تعود وتبرز. كانت الموسيقى مبتذلة، ولكن الصفير كان عذبًا بدرجة عجيبة.. نغماته ناعمة ومبهجة، صافية بشكل غير عادي، سعيدة وطبيعية كتغريد الطيور، وقفت أنصت مسحورًا، وفي نفس الوقت منفعلًا بشكل غريب دون أنْ يصاحب هذا الانفعال أفكار من أي نوع آخر.. وإن كان قد حدث هذا، فمن الجائز أن تكون قد واتتني فكرة أنَّ منْ يستطيع أنْ يصفر بهذه الطريقة لا بد أن يكون رجلًا سعيدًا ومحبوبًا للغاية. ولبضع دقائق وقفت هناك مستمرًّا في موضعي أنصت. مر بجانبي رجل عجوز ذو وجه مريض هضيم. رآني واقفًا، فأنصت هو الآخر، وبعد دقيقة تمامًا ابتسم لي ابتسامة تدل على الفهم وهو يواصل طريقه. ولقد بدا لي أنَّ نظرته الجميلة المستشفة تقول: «امكث حيث أنت.. فالواحد منا لا يسمع صفيرًا كهذا كل يوم..» أبهجتني لمحة الرجل العجوز، وشعرت بالأسف عندما ذهب، وفي نفس اللحظة أدركت في الحال أنَّ هذا الصفير هو التحقق لكل رغباتي. وأن الذي يصفر لا بد أن يكون «ليو».

كان الظلام قد أخذ يزحف، ولكن لم يظهر ضوء بعد في نافذة.. وانتهى اللحن بتنوعاته البسيطة.. وساد الصمت.. وفكرت: «سوف

يشعل الضوء الآن»، ولكن ظل كل شيء في ظلام.. ثم سمعت بابًا يُفتح أعلى الدرج، وسرعان ما سمعت كذلك وقع خطوات على الدرج، وفُتح باب المنزل وخرج منه رجل.. كانت مشيته صغيرة خفيفة ومرحة، ولكنها ثابتة مليئة بالصحة والشباب. كان الذي يسير هناك رجل نحيف للغاية، لا يلبس قبعة وليس طويلًا جدًّا.. وهنا أصبح شعوري يقينًا.. كان هو «ليو».. ليس «ليو» الذي قرأنا اسمه في الدليل فحسب، بل كان «ليو» بعينه «ليو» زميل رحلتنا وخادمنا العزيز الذي سبب لنا اختفاؤه منذ عشر سنوات أو أكثر حزنًا واضطرابًا شديدين، لقد خاطبته تقريبًا في لحظة بهجتي ودهشتي الأولى، ثم تذكرت أنني سمعته مرارًا يصفر أثناء الرحلة إلى الشرق. كان نفس لحن الأيام السالفة، ومع هذا، فكم كان وقعه عليَّ مختلفًا بشكل غريب! غمرني شعور بالحزن كطعنة في القلب: آه كم أصبحت الأشياء جميعًا مختلفة منذ ذلك الحين، السماء والهواء والفصول والأحلام والنوم والنهار والليل! كم تغيرت الأشياء جميعًا بالنسبة إليَّ تغيرًا كبيرًا ومريعًا، عندما يستطيع صفير أو وقع خطوةٍ معروفة، خلال تذكر الماضي وحده، أن يؤثر فيَّ هذا التأثير العمق، ويغمرني بهذا القدر الكبير من المتعة والألم!

ومر الرجل على مقربة مني، وقد برز من فتحة قميصه الأزرق رأسه العاري مطمئنًا رصينًا فوق عنقه العارية. تحرك هيكل الرجل ببساطة ومرح عبر الزقاق المظلم، وحركته لا تكاد تسمع وهو ينتعل صندلًا

رقيقًا أو حذاء من الكاوتشوك.. تتبعته دون قصد معين. كيف يمكن لي إلَّا أنْ أتتبعه! سار في الزقاق، وبرغم أن خطواته كانت خفيفة ولينة ومليئة بالصبا، فإنها كانت كذلك تتلاءم مع المساء. كانت لها نفس طبيعة الغسق.. كانت ودودة، وكانت ممتزجة باللحظة، بالأصوات المبهمة الآتية من وسط المدينة.. ببصيص المصابيح الأولى التي كانت لتوها قد أخذت تظهر.

استدار إلى الحديقة الصغيرة عند بوابة «سانت بول» واختفى بين الأشجار الطويلة الملفوفة، وأسرعت خلفه حتى لا أفقده. ها هو ذا هناك ثانية، كان يمشي الهوينى على طول شجيرات الليلاك والسنط، وتفرع الممر فرعين داخل الغابة الصغيرة، وكان هناك مقعدان على طرف الحشائش. وكان الظلام قد خيم تحت الأشجار. وتجاوز «ليو» المقعد الأول الذي كان يجلس عليه عاشقان، وكان المقعد الثاني خاليًا، فجلس مستندًا إلى ظهر المقعد، ملقيًا برأسه إلى الخلف. وأخذ يرقب أوراق الشجر والسحب فترة من الوقت، ثم أخرج من جيب معطفه صندوقًا معدنيًّا صغيرًا أبيض مستديرًا ووضعه بجانبه على المقعد، وأخذ يفتح غطاءه وبدأ ببطء يخرج شيئًا من الصندوق يضعه في فمه ويأكله باستمتاع. في هذه الأثناء سرت جيئة وذهابًا بين الغابة ومدخلها، ثم اتجهت إلى المقعد الذي يجلس عليه وجلست على الطرف الآخر. رفع رأسه وحملق فيَّ بعينين صافيتين رماديتين واستمر يأكل. كان يأكل فاكهة مجففة. قليل من القراصية والمشمش.

كان يتناول منها الواحدة بعد الأخرى بين أصبعيه، فيضغط وينقر عليها قليلًا ويضعها في فمه، ثم يستغرق فترة طويلة في مضغها باستمتاع. ومضى وقت طويل قبل أن يتناول آخر واحدة منها ويأكلها، ثم أقفل الصندوق مرة أخرى، ونحاه جانبًا، ومال إلى الخلف، وتمطى برجليه إلى الأمام، وبهذا رأيت أنَّ حذاءه قماشيّ له نعل من حبال مضفرة.

قال على حين فجأة: «ستمطر هذه الليلة». ولم أعرف إذا كان يوجه كلامه إليَّ أو إلى نفسه.

وقلت: «نعم، يبدو ذلك»، وشعرت ببعض الضيق؛ إذ إنه لم يكن قد تعرف بعد لا على شكلي ولا على مشيتي، فكان من الممكن، بل من المؤكد أنه الآن سوف يتعرف عليَّ من صوتي.

ولكن لا، لم يتعرف عليَّ إطلاقًا، حتى من صوتي، وبرغم من أنَّ هذه كانت أمنيتي الأولى، فقد أثار هذا في نفسي شعورًا بخيبة أمل كبيرة. إنه لم يتعرف عليَّ. فعلى حين أنه قد ظل كما كان منذ عشر سنوات، وأنه كما يبدو لم يكبر في السن أبدًا، فإنَّ الأمر كان يختلف تمامًا بالنسبة لي، يختلف بشكل يدعو للحزن.

قلت:

– إنك تجيد الصفير. لقد استمعت إليك قبل ذلك في «سايلنجرابن»، ولقد غمرني صفيرك بالمتعة، فقد كنت موسيقيًّا.

فقال بنبرة ودية:

– آه! أحقًّا ذلك؟ إنها مهمة عظيمة، وهل أقلعت عنها بعد ذلك؟

– نعم، في الفترة الراهنة، بل ولقد بعت كماني في هذه الفترة.

– أحقًّا ذلك؟ إنه لأمر مؤسف! هل تواجهك مصاعب، أقصد هل أنت جوعان؟ لا يزال في منزلي بعض الطعام، ولديّ كذلك قليل من المال في كيس نقودي؟

فقلت مسرعًا:

– آه.. لا، لست أقصد ذلك.. إن أحوالي لا بأس بها، فلديَّ أكثر مما أحتاج إليه. على أني أشكرك شكرًا جمًّا.. وإنه لتلطف كبير منك أنْ تعرض عليَّ المساعدة. إن الإنسان لا يلتقي كثيرًا بأناس طيبين هكذا.

– ألا تظن كذلك؟ حسنًا.. ربما.. الناس غالبًا في منتهى الغرابة. إنك شخص غريب كذلك.

– أنا؟ لماذا؟

– حسنًا؛ لأن لديك نقودًا كافية، ومع ذلك تبيع كمانك.. ألم تحب الموسيقى بعد؟

– آه.. نعم، ولكن قد يحدث للإنسان ألَّا يجد متعة فيما كان يحبه قبلًا. وقد يحدث أحيانًا أنْ يبيع رجل كمانه أو يلقي بها للحائط، أو قد يحدث أن يحرق رسام ذات يوم كل صوره. ألم تسمع قط بشيء كهذا؟

– آه! نعم هذه أمور يدفع إليها اليأس وهي تحدث فعلًا، بل عرفت رجلين انتحرا. إنَّ أناسًا كهؤلاء ليسوا إلا أغبياء. ويمكن أن يكونوا خطرين. إن المرء لا يستطيع لهذا مساعدة بعض الناس، ولكن ماذا تفعل الآن بعد أنْ لم يعد لديك كمان؟

– آه، هذا الأمر وذاك.. على أني لا أفعل كثيرًا في الحقيقة، فلم أعد شابًّا، وما أكثر ما أكون مريضًا. ولكن لماذا تتمسك بمواصلة الكلام عن هذا الكمان؟ إنها ليست في الحقيقة على هذه الدرجة من الأهمية.

– الكمان؟ لقد جعلني أفكر في الملك داود.

– الملك داود؟ ما شأنه بالكمان؟

– كان هو كذلك موسيقيًّا. وعندما كان شابًّا، اعتاد أن يعزف للملك «سول» وفي بعض الأحيان كان يروّح عن مزاجه المعتل بعزف الموسيقى. وقد أصبح هو نفسه ملكًا بعد ذلك.. ملكًا عظيمًا تمتلئ حياته بالاهتمامات والمشاغل، وتنتابه كل صنوف المزاجات والمنغصات، لقد لبس تاجًا وخاض حروبًا وكل ما شابه ذلك من الأمور. على أنه ارتكب كذلك أفعالًا وضيعة حقًّا، وأصبح مشهورًا، ولكنني عندما أتأمل حياته، أتبين أنَّ أجمل جانب فيها جميعًا يدور حول داود الشاب، وهو يعزف على قيثارته للملك سول المسكين، ويبدو لي مؤسفًا أنه قد صار ملكًا بعد ذلك. لقد كان أكثر سعادة، وشخصًا أفضل عندما كان موسيقيًّا.

وصحت بانفعال:

- لقد كان كذلك طبعًا، كان أصغر سنًّا بالطبع في ذلك الحين، وكان أكثر ملاحة وأشد سعادة، ولكن المرء لا يظل صغيرًا على الدوام. إنَّ داودك هذا كان سيكبر مع الزمن ويصبح أكثر قبحًا وتشغله الاهتمامات حتى إذا ظل موسيقيًّا. وهكذا صار داود العظيم، وأنجز أعماله وألف مزاميره.. إنَّ الحياة ليست مجرد لعبة.

عندئذ وقف «ليو» وانحنى قائلًا:

- إن الظلام يشتد، وسوف تمطر في الحال. إنني لا أعرف كثيرًا عن الأعمال التي أنجزها «داود»، ولا أعرف ما إذا كانت عظيمة حقًّا. وبصراحة تامة فإنني لا أعرف كثيرًا عن مزاميره، ولكنني لا أود أن أتكلم ضده ولا ينبغي لي. على أنه ليس في حياة «داود» ما يمكن أن يقنعني بأنَّ الحياة ليست مجرد لعبة. إن هذا هو معنى الحياة تمامًا عندما تكون جميلة وسعيدة.. أن تكون لعبة.. ومن الطبيعي أنَّ المرء يمكن كذلك أنْ يقوم معها بعمل كل صنوف الأشياء الأخرى.. يجعل منها واجبًا، أو ساحة معركة، أو سجنًا. على أنَّ هذا لن يجعلها أكثر جمالًا. مع السلامة، إنني سعيد بلقائك.

وأخذ هذا الرجل الغريب الحبيب يبتعد بخطواته الخفيفة اللطيفة الثابتة، وكان على وشك الاختفاء عندما أفلت زمام نفسي وجريت خلفه في قنوط وأنا أصيح متوسلًا:

«ليو»! «ليو»! أنت «ليو».. أليس كذلك؟ ألم تعد تعرفني البتة؟

كنا إخوة في «العصبة» معًا، ويجب أن نظل كذلك. كنا نحن الاثنين مسافرين في الرحلة إلى الشرق. هل نسيتني حقًّا يا «ليو»؟ ألم تعد تتذكر حقًّا «حراس التاج» و«كلنجسور» و«جولدماند» واحتفال «برمجارتين» و«مضيق موربيو انفريوري؟»، «ليو».. رفقًا بي.

لم يجرِ كما خشيت أن يفعل، ولكنه كذلك لم يستدر نحوي. واصل سيره بثبات كأنه لم يسمع شيئًا، ولكنه أتاح لي وقتًا للحاق به، ولم يَبْدُ أنه يعارض في مصاحبته.

وقال بعطف:

– ما أشد اضطرابك وتعجلك، ليس هذا بالشيء المستحب، إنه يشوه الوجه ويجعل المرء مريضًا. سنسير الهوينى.. فهذا مريح.. رذاذ المطر القليل رائع.. أليس كذلك؟ إنه يصدر من الهواء كماء الكولونيا.

وقلت متوسلًا:

– «ليو» رفقًا بي، قل لي شيئًا واحدًا لا غير. ألم تعرفني بعد؟

قال بعطف:

– آه!

واستمر في الحديث كما لو كان يحادث رجلًا مريضًا أو مخمور:

– ستكون أحسن الآن.. لم يكن غير التأثر والانفعال. تسأل عن إذا كنت أعرفك. حسنًا.. أي امرئ يعرف آخر حقًّا أو حتى يعرف نفسه؟

أما بالنسبة لي، فلست بالرجل الذي يفهم الناس أبدًا.. لست مهتمًّا بهم. أنا أفهم الآن الكلاب جيدًا، وكذلك الطيور والقطط، ولكنني لا أعرفك حقًّا يا سيدي.

– ولكن ألست تنتمي إلى «العصبة»؟ ألم تذهب إلى الرحلة معنا؟

– إنني ما زلت في الرحلة يا سيدي، وما زلت منتميًا إلى «العصبة»، كثيرون يجيئون ويذهبون. المرء منا يعرف الناس، ومع هذا لا يعرفهم.. المسألة أكثر سهولة مع الكلاب. انتظر. امكث هنا لحظة.

رفع «ليو» أصبعه محذرًا. وقفنا في ممر الحديقة المظلم الذي كان قد أخذت تغمره رطوبة خفيفة، ضم «ليو» شفتيه، وأرسل صفيرًا طويلًا متموجًا، ناعمًا، وانتظر لحظة، وصفر ثانية. وتراجعت قليلًا إلى الخلف حين قفز فجأة من بين الشجيرات، بالقرب منا خلف سياج العريشة التي كنا نقف عندها، كلب ضخم من نوع الألزاسي، أخذ يزوم تعبيرًا عن البهجة، وأخذ يتمسح بالسياج كي يمكِّن أصابع «ليو» من أنْ تربت عليه خلال القضبان والأسلاك، وأخذت عينا الحيوان القويتان تشعان خضرة خفيفة، وكلما وقعت نظرته عليَّ، زمجر زمجرة آتية من أعماق حنجرته. كانت مثل صوت الرعد البعيد الذي لا يكاد يُسمع.

قال «ليو» مُعَرِّفًا كلًّا منا للآخر:

– هذا هو الكلب الألزاسي «نكر». إننا أصدقاء جد حميمين، يا «نكر» هذا هو عازف كمان سابق. يجب ألَّا تتعرض له، أو حتى تنبح في وجهه.

وقفنا هناك، وعبر السور، أخذ «ليو» يحك برفق فروة الكلب المبللة. كان منظرًا بديعًا حقًّا، لقد سرني للغاية أنْ أرى كم كان ودودًا مع الكلب، وكم كان سعيدًا بهذه التحية الليلية. وفي الوقت نفسه كان مؤلمًا لي، بل من الصعب احتمال أنْ أرى «ليو» يكنُّ كل هذه الصداقة لهذا الألزاسي وربما لكثيرين غيره، بل ربما لكل كلاب الحي، على حين تفصله عني مسافة شاسعة من التجاهل والتباعد. لقد بدت الصداقة والعلاقة الحميمة التي كنت أنشدها وأسعى إليها بتواضع، لم تعد وقفًا على هذا الكلب «نكر» فحسب، بل على كل حيوان.. على كل قطرة مطر.. على كل بقعة أرض يطأها «ليو». وبدا أنه قد كرس نفسه بإصرار راسخ، وأنه سيظل كذلك دائمًا، من أجل علاقة متوازنة مع ما يحيط به، متعرفًا على كل شيء.. يعرفه ويحبه الجميع. أما فيما يتعلق بي أنا وحدي، أنا الذي أحببته، وكنت في أشد الاحتياج إليه، فلم تعد ثمة صلة. لقد ابتعد بنفسه عني أنا وحدي. أخذ ينظر إليَّ على نحو خال من الود والحرارة. كان على مسافة بعيدة مني، ومحاني من ذاكرته.

أخذنا نمشي الهوينى معًا، وقد رافقه كلبه.. على الجانب الآخر من السور. وكان الكلب يخرج أصواتًا راضية ناعمة تعبيرًا عن المحبة والسرور، دون أن ينسى وجودي غير المرغوب فيه. على أنه مراعاة لـ«ليو» كان يكبت أكثر من مرة زمجرته ذات النبرة الدفاعية والمعادية.

وعدت أقول:

- سامحني، إنني أربط نفسي بك، وأضيع وقتك، إنك تريد أن تذهب إلى منزلك وتنام.

أجابني مبتسمًا:

- أبدًا، لا يعنيني أن أمضي الليلة متسكعًا هكذا، فلا الوقت ينقصني ولا الرغبة، إذا لم يكن الأمر مرهقًا لك.

قال هذا بطريقة ودية للغاية، وبغير تحفظ بالتأكيد. ولكنه لم يكد ينطق بهذه الكلمات حتى أحسست فجأة في رأسي وفي كل عضلة من جسمي كم أنا جد متعب، وكم سيكون مرهقًا بالنسبة لي هذا التجول الليلي العقيم المحير.

قلت محبطًا:

- إنني في الحقيقة مرهق للغاية، لقد تبينت هذا الآن فقط. كما أنه لا معنى كذلك للتجول طول الليل تحت الأمطار. لعلنا بهذا نزعج الآخرين.

قال بأدب:

- كما تشاء.

- آه يا سيد «ليو»، إنك لم تكن تتحادث معي هكذا أثناء رحلة «العصبة إلى الشرق». هل نسيت حقيقة كل شيء عنها؟

- آه! حسن.. لا فائدة. لا تدعني أستبقيك أكثر من ذلك.. مساء الخير.

اختفى سريعًا في ظلام الليل، وبقيت وحدي أشعر بالحماقة

خافض الرأس. لقد خسرت اللعبة، فلم يعرفني.. لا يريد أن يعرفني.. لقد سخر مني.

قفلت عائدًا على طول الممر. نبح الكلب «نكر» بغضب وراء السياج.. انتفضت من التعب والأسى والوحدة في تلك الحرارة الرطبة من ليل الصيف.

لقد عانيت لحظات مشابهة في الماضي، ولقد بدا لي أثناء فترات يأسي كهذه- كأنما أنا هذا الحاج الضائع قد شارفت الطرف الأقصى من العالم، ولم يبق لي ما أفعله إلا أن أحقق رغبتي الأخيرة- أنْ أترك نفسي تتساقط من طرف العالم في الفراغ.. إلى الموت. وخلال هذه الفترة عاودني في هذا اليأس مرات عديدة. على أنَّ هذه الرغبة القوية على الانتحار قد غيرت من مسارها وكادت أن تتلاشى، فلم يعد الموت عدمًا أو فراغًا أو إنكارًا، لقد أصبح يعني كذلك أشياء أخرى كثيرة بالنسبة لي.. إنني الآن أتقبل ساعات اليأس كما يتقبل امرؤٌ ألمًا جسديًّا حادًّا فيتحمله شاكيًا أو متحديًا.. إن المرء يحس به يتضخم ويزداد، وأحيانًا يتولد فضول غاضب أو ساخر حول المدى الذي يمكن أنْ يبلغه أكثر من ذلك، وإلى أي حد يمكن للألم أن يتزايد.

فمنذ عودتي من رحلتي الفاشلة إلى الشرق، أصبح كل احتقار لحياتي الخالية من الإيمان، خاليًا أكثر وأكثر من الجدوى والحماس، وأخذ كل فقداني للثقة في نفسي وفي قدراتي، وكل سعي وتشوق ممضّ للخير وللحظات العظيمة التي مارستها ذات يوم، أخذ كل هذا

ينمو مثل الألم في داخلي. أخذ ينمو عاليًا كشجرة.. كجبل ويتثاقل عليَّ.. وكان كل هذا يرتبط بالمهمة السابقة التي كنت قد بدأتها لصالح الرحلة إلى الشرق ولصالح «العصبة». لقد بدا لي الآن أنه حتى تَحقُّق هذه المهمة لم يعد أمرًا مرغوبًا فيه أو جديرًا بالاهتمام. على أنَّ أملًا واحدًا فقط قد ظل جديرًا بالأهمية بالنسبة لي. ذلك أن أطهر نفسي وأن أخلصها إلى حد كبير بعملي وبرعايتي لذكرى تلك الفترة العظيمة. أنْ أحقق لنفسي مرة أخرى صلتها بالعصبة وبتجاربها.

عندما بلغت المنزل، أضأت النور، جلست إلى مكتبي بملابسي المبتلة.. وقبعتي فوق رأسي، وأخذت أكتب رسالة.. كتبت إلى «ليو» عشر صفحات.. اثنتي عشرة.. عشرين صفحة، أتظلم فيها وأعبر عن ندمي وتوسلي.. عبَّرت له عن مدى احتياجي له. واستحلفته بصوَرٍ من خبراتنا المشتركة، ومن صداقتنا المتبادلة السابقة. شكوت من الصعوبات البالغة التي لا حد لها، والتي قضت على مهمتي النبيلة. لقد اختفى إرهاق اللحظة.. وجلست هناك أكتب منفعلًا.. وكتبت بأنني رغم كل الصعوبات سوف أتحمل أشد الأمور سوءًا دون أنْ أبوح بسر واحد من أسرار العصبة.. وبأنني رغم كل شيء، لن أفشل في استكمال عملي في ذكرى الرحلة إلى الشرق، وتمجيدًا للعصبة، وكما لو كنت محمومًا ملأت صفحة وراء صفحة بكلمات متسرعة. كانت تظلماتي وشكاواي وإداناتي لنفسي تنساب من نفسي كما ينساب الماء من جرة مكسورة بغير تفكير.. وبغير إيمان.. وبغير أمل في الإجابة،

تحدوني رغبة فقط أنْ أخفف عن نفسي، وبرغم أنَّ الليل كان لا يزال مخيمًا، حملت الرسالة السميكة إلى أقرب صندوق بريد.. ثم ما لبثت أن أخذت تلوح تباشير الصباح. أطفأت النور، وذهبت إلى غرفة نومي الصغيرة العلوية بجوار غرفة الجلوس، ورقدت على السرير ونمت في الحال.. نمت نومًا عميقًا جدًّا ولفترة طويلة.

❋ ❋ ❋

الفصل الخامس

بعد أن صحوت وغفوت مرات عديدة، صحوت في اليوم التالي مصابًا بصداع، على أني كنت أشعر بالراحة. وما أشد دهشتي وبهجتي، وحيرتي كذلك، عندما وجدت «ليو» في غرفة الجلوس. كان يجلس على طرف مقعد.. ويبدو كأنما كان ينتظر منذ فترة طويلة.

وصحت:

- «ليو»، لقد حضرت!

فقال:

- لقد أرسلتني «العصبة» إليك.. فقد كتبت رسالة لي خاصة بها، فأعطيتها للمسؤولين، وعليك أنْ تمثل أمام «العرش الأعلى»، هل يمكننا الذهاب؟

وسارعت مضطربًا إلى لبس حذائي.. وكان مكتبي غير المرتب منذ الليلة الماضية، لا يزال على حالة من الفوضى وعدم النظام. وفي

هذه اللحظة ما كدت أعرف أبدًا ماذا كنت قد كتبت منذ ساعات قليلة ماضية، وأنا أجلس إليه محتدمًا مشحونًا بالألم والعذاب، ومع هذا، فلا يبدو أنه كان عبثًا.. لقد تحقق شيء.. قد حضر «ليو».

وفجأة للمرة الأولى تبينت معنى كلماته.. إذَنْ لا تزال توجد «عصبة» ما عدت أعرف عنها شيئًا، توجد من دوني، وما عادت تعترف بي كواحد ينتسب إليها! لا تزال توجد عصبة ولا يزال يوجد «العرش الأعلى»، لا يزال يوجد المسؤولون. إنهم أرسلوا في طلبي! وعندما تبينت ذلك، أخذت تتناوبني الحرارة والبرودة. لقد عشت في هذه المدينة شهورًا عديدة منشغلًا بملاحظاتي عن العصبة وعن رحلتنا. وما كنت أعرف ما إذا كانت البقية الباقية من العصبة لا تزال موجودة، وأين هي، أم لعلني الآن أكون عضوها الأخير الباقي. وفي الحقيقة وبصراحة تامة، أنني ما كنت متأكدًا في بعض الأوقات مما إذا كانت العصبة وعضويتي فيها كانت أمرًا حقيقيًّا ذات يوم. ثم ها هو ذا «ليو» يقف الآن هناك مبعوثًا من العصبة للإتيان بي.. لقد تذكروني واستدعوني للمسألة، إنهم يريدون الاستماع إليَّ.. ربما ليصدروا حكمًا عليَّ.. حسنًا! أنا مستعد.. مستعد لأبين لهم أنني لم أغدر بعهد العصبة.. مستعد أن أكون مطيعًا.. سواء عاقبني المسؤولون أو عفوا عني. كنت مستعدًّا سلفًا أن أتقبل أي شيء.. أن أرتضي حكمهم في كل شيء، وأن أكون مطيعًا لهم.

وانطلقنا.. كان «ليو» يسير في المقدمة.. ومرة أخرى، كما كنت

أفعل منذ سنوات بعيدة، عندما كنت أراقبه، وأراقب الطريقة التي يمشي بها، لم أملك نفسي أنْ أعجب به كخادم جيد وكفء إلى حد الكمال. أخذ يسير أمامي طوال الأزقة بخفة وتؤدة ليدلني على الطريق.. كان الدليل الذي يتصف بالكمال والخادم الذي يتصف بالكمال في أدائه لعمله والمسؤول الذي يتصف كذلك بالكمال، ومع هذا فقد وضع صبري في اختبار كبير. لقد استدعتني العصبة للمساءلة.. وتنتظر مثولي أمام «العرش الأعلى»، كان كل شيء يتعلق بي معرَّضًا للخطر.. سوف يتقرر مستقبل حياتي كله.. وسوف أستعيد الآن معنى ماضي حياتي كله، أو أفقده كاملًا. وأخذت أنتفض أملًا وسرورًا وقلقًا وخوفًا مكبوتًا. وهكذا بسبب تلهفي بدا لي الطريق الذي كان يقطعه «ليو» طويلًا بشكل غير محتمل؛ إذ كان عليَّ أن أتبع دليلي أكثر من ساعتين خلال أغرب المنعطفات وأشدها نزوة واعتباطًا فيما يبدو. لقد تركني «ليو» أنتظره مرتين أمام كنيسة، دخلها ليصلّي. وظل متأملًا مستغرقًا مدة طويلة بدت لي لا نهاية لها، متأملًا أمام قاعة المدينة القديمة. وأخبرني أن الذي أنشأها في القرن الخامس عشر كان عضوًا مشهورًا من أعضاء «العصبة». وبرغم أن «ليو» كان يمشي بشكل يتسم إلى حد كبير فيما يبدو بالجهد الجاد والحمية والاستهداف، فلقد حيرتني تمامًا هذه المنعطفات والدورات والتعرجات التي أخذ بها يقترب من هدفه. إنَّ المشي الذي استنفد منا الصباح بأكمله، كان يمكن أن يتم بسهولة في ربع ساعة.

وأخيرًا، قادني إلى حارة نائمة في ضاحية المدينة، ثم أدخلني بناءً ضخمًا للغاية يرين عليه السكون. كان يبدو من الخارج كأنه بناء متسع لمجلس كنسيّ أو كأنه متحف. في البداية لم يُشاهد أحد في أي موضع منه. كانت الممرات والسلالم مهجورة وتتجاوب منها أصداء وقع أقدامنا. وأخذ «ليو» يبحث في الممرات والسلالم والغرف الأمامية. وذات مرة فتح بحذر بابًا كبيرًا رأينا على الجانب الآخر منه مرسمًا مزدحمًا. وكان الفنان «كلينجسور» في قميصه ذي الأكمام يقف أمام حامل الرسم. آه! كم من سنوات عديدة مضت منذ أنْ رأيت وجهه الحبيب! على أنني لم أجرؤ على تحيته، فلم يكن الوقت قد نضج لذلك بعد. وكان هناك من ينتظرني، كان هناك من استدعاني للمساءلة.. ولم يهتم «كلينجسور» بنا كثيرًا، أومأ بالتحية لـ«ليو»، أما بالنسبة لي، فإما أنه لم يرني، أو أنه لم يتعرّف عليَّ. ولم يلبث أن أشار إلينا بهدوء وود –ولكن بحسم– كي نخرج، غير محتمل أي تعطيل له في عمله.

وفي النهاية بلغنا مخزنًا فوق سطح البناء الضخم، كانت تنبعث منه رائحة الورق ودواليب البطاقات. وعلى طول الجدران وعلى امتداد مئات الياردات، كانت تبرز أبواب الدواليب وأقفية الكتب وأكوام السجلات، أرشيف ضخم ومحكمة عليا فسيحة. لم يلحظنا أحد.. كان الجميع منهكًا يعمل في صمت، وبدا لي كأنما العالم برمته بما فيه السموات ذات النجوم يُدار أو على الأقل يرصد ويراقب من هناك،

وقفنا هناك مدة طويلة، وانتظرنا، كان العديد من موظفي الأرشيف والمكتبة يُسرعون الخطو حولنا في صمت حاملين في أيديهم سجلات البطاقات والأرقام. وضعوا السلالم في أماكنها وصعد عليها بعضهم.. وكانت المصاعد والعربات الصغيرة تتحرك بعناية وهدوء، وأخيرًا أخذ «ليو» يغني، فأنصتُّ إلى اللحن بتأثر عميق.. كان ذات يوم مألوفًا لديَّ إلى حدٍّ كبير.. كان لحنًا لأحد أغنياتنا في «العصبة».

وما إن بدأت الأغنية حتى اندفع فورًا يتحرك كل شيء. تراجع الموظفون إلى الخلف، وامتدت القاعة إلى بُعْدٍ سحيق قاتم. وفي الخلفية البعيدة، كان الرجال المجدون وقد تضاءلوا وبدوا غير حقيقيين يعملون بهمة في قسم الأرشيف الضخم. أما صدر المكان فكان فسيحًا وخاليًا. امتدت القاعة إلى مسافة مثيرة، وفي الوسط اصطفت مقاعد عديدة في نظام دقيق. وأخذ كثير من الموظفين يخرجون، بعضهم يخرج من الخلفية البعيدة وبعضهم الآخر من الأبواب العديدة، وأخذوا يقتربون بتؤدة من المقاعد ويجلسون عليها الواحد بعد الآخر. وأخذ صف من المقاعد بعد الآخر يمتلئ رويدًا رويدًا. ثم ما لبث أنْ أخذ تشكيل المقاعد يتصاعد متدرجًا حتى بلغ قمته في النهاية في شكل عرش سامق لا يشغله أحد بعد. احتشد (*Synedrium*) المهيب من أدنى صف للمقاعد حتى العرش. ونظر إليَّ «ليو» محذرًا إياي حتى أتمسك بالصبر والصمت والاحترام. ثم ما لبث أن اختلط بالحشد. وعلى حين فجأة اختفى ولم يعد في مقدوري

أن أراه. على أنني أبصرت هنا وهناك بين الموظفين الذين اجتمعوا حول «العرش الأعلى» وجوهًا مألوفة لي، جادة أو مبتسمة. رأيت وجه «ألبرت الأكبر» و«فاسوديفا» المعداوي والفنان «كلينجسور» وآخرين.

وأخيرًا خيَّم السكون، وخطا «المتحدث باسم المجلس» خطوة إلى الأمام. ووقفت متضائلًا وحيدًا أمام «العرش الأعلى» متأهبًا لكل شيء، وأنا على حال من القلق الشديد، على أنني كنت موافقًا كل الموافقة على ما سوف يحدث ويتقرر.

ودوى في القاعة صوت المتحدث باسم المجلس واضحًا متزنًا. وسمعته يعلن إدانة ذاتية لأخ منشقٍّ عن «العصبة». ارتعشت يداي.. كانت القضية قضية حياتي.. حقًّا كان ينبغي أن تكون كذلك.. ينبغي الآن أنْ يوضع كل شيء في موضعه الصحيح.. وواصل المتحدث كلامه.. هل تُدعى هـ. هـ؟ هل اشتركت في المسيرة عبر «سوابيا العليا» وفي احتفال «برمجارتن»؟ هل تنكرت لمعتقداتك بعد «موربيو أنفريوري» بقليل؟ هل تعترف أنك أردت أنْ تكتب قصة عن الرحلة إلى الشرق؟ هل تعتقد أن قسمك على ألا تبوح بأسرار العصبة هو الذي قد أعاقك؟

أجبت «بنعم» عن كل سؤال بعد الآخر، حتى عن تلك الأسئلة التي لم أفهمها، والتي أفزعتني.

وتداول المسؤولون بالهمس والإيماءات مدة قصيرة، ثم خطا

المتحدث باسم المجلس خطوة أخرى إلى الأمام معلنًا: «إن الذي أدان ذاته فوضناه هنا أن يكشف علنًا كل ما يعرف من قوانين «العصبة» وأسرارها. وفضلًا عن ذلك فإن كل سجلات «العصبة» ووثائقها سوف توضع تحت تصرفه لتحقيق مهمته».

وتراجع المتحدث إلى الخلف.. وانفض الموظفون وأخذوا يختفون رويدًا رويدًا، بعضهم اختفى عن خلفية القاعة، والبعض الآخر توارى خلف أبواب الخروج. وشمل القاعة الضخمة سكوت تام. وعندما رجعت أتلفت حولي مهمومًا قلقًا، رأيت شيئًا يبدو لي مألوفًا يرقد فوق وثيقة من وثائق المحكمة. عندما التقطته تبينت أنه إنتاجي، ولدي الهزيل، المسودة التي كنت قد بدأت كتابتها. وكان منقوشًا على المظروف الأزرق «قصة الرحلة إلى الشرق بقلم هـ. هـ». أمسكت به بيد يدي وأخذت أقرأ الصفحات المخطوطة بخطٍّ صغير متلاصق والمليئة بالشطب والتصحيح. وبسرعة، وكلي حماس للعمل وجدتني مغمورًا بالإحساس بأنه قد أتيح لي الآن أخيرًا أنْ أستكمل مهمتي بموافقة الهيئات العليا، بل في الواقع بمساعدتهم. وعندما تبينت أنه لم يعد هناك عهد يقيدني، وأنه في استطاعتي الوصول إلى السجلات والمحفوظات، إلى تلك الحجرات الضخمة العامرة بالكنوز، بدا لي عملي أكثر رفعة وأشد أهمية عن ذي قبل.

ومع هذا فكلما قرأت صفحات أكثر من مخطوطي، قل إعجابي بها. إنها ما بدت لي أبدًا على هذا النحو من التفاهة والسخف، حتى في

أشد لحظات قنوطي السابقة، كما تبدو لي الآن.. كان كل شيء يبدو مشوشًا وغبيًّا، أنصع العلاقات كانت محرّفة، وأشد الأشياء وضوحًا كانت منسية، على حين أنَّ أكثر الأمور تفاهة وسخفًا كانت مبرزة. يجب أن تُكتب من جديد، تُكتب من أولها. ولما أخذت أواصل قراءة المخطوطة، كان عليَّ أن أشطب جملة بعد أخرى، وعندما كنت أقوم بشطبها كانت الجمل تتفتت على الورق، وتأخذ الحروف الخارجة منها والمنحدرة عنها في التشكل في جزئيات متفرقة ومتسقة معًا، في خطوط ونقط، في دوائر وزهور ونجوم صغيرة، وأصبحت الصفحات مغطاة مثل السجاجيد والطنف بتشكيلات رشيقة زخرفية خالية من المعنى. وسرعان ما لم يبق شيء من النصف الذي كتبته. على أنه تبقى لعملي ورق كثير غير مستعمل. فاستجمعت نفسي، وحاولت أنْ أرى الأمور بوضوح. وكان من الطبيعي أنْ أكون عاجزًا عن أنْ أقدم من قبل تقريرًا واضحًا لا تحيز فيه، ذلك أن كل شيء في الحقيقة كان متعلقًا بأسرار، منعني عهدي «للعصبة» أن أكشف عنها. كنت قد حاولت أنْ أتحاشى عرض القصة عرضًا موضوعيًّا، ولهذا اقتصرت ببساطة على تجاربي الشخصية مغفلًا أشد العلاقات والأهداف والأغراض أهمية. ويمكن للمرء أنْ يتبين إلى أين أدى بي ذلك. ومن ناحية أخرى لم يعد هناك تعهد بالصمت، ولم تعد هناك موانع أخرى. لقد مُنحت موافقة رسمية كاملة. وفضلًا عن ذلك، فقد أصبح تحت تصرفي سجلات ومحفوظات لا تنفد.

كان واضحًا لي أنه حتى لو أن عملي السابق لم يكن قد تفتت وأصبح مجرد زخارف، فقد كان عليَّ أن أبدأ الموضوع برمته مرة أخرى على أساس جديد، وأنْ أُعيد صياغته. قررت أنْ أستهل الموضوع بنبذة قصيرة عن «العصبة»، وعن تأسيسها ودستورها. ولا شك أنني سوف أجد إجابة على كل أسئلتي في الفهارس الضخمة المبوبة الشاملة التي لا تنتهي، والموضوعة فوق جميع المناضد التي تمتد بعيدًا إلى مسافة شاسعة حتى يكاد يكتنفها الظلام.

قررت قبل كل شيء أنْ أختبر السجلات اختبارًا عشوائيًّا. كان عليَّ أن أتعلم كيف أستخدم هذا الجهاز الضخم. وكان من الطبيعي أنْ أبحث عن وثيقة «العصبة» قبل أي شيء آخر.

قرأت في الفهرست ما يلي: «وثيقة العصبة» «انظر شعبة مجموعة ٧ سفر ٣٩– ٨ يمين». ووجدت الشُعبة والمجموعة والسفر بسهولة تامة. إنني أحمل الآن وثيقة «العصبة» بين يديَّ. وكان عليَّ أن أعد نفسي لإمكان ألَّا أكون قادرًا على قراءتها. وفي واقع الأمر لم أقدر على قراءتها، كانت مكتوبة بحروف يونانية فيما بدا لي، وكنت أفهم قدرًا معينًا من اليونانية، على أنه من ناحية أخرى كانت الكتابة غاية في القدم والغرابة. كانت أغلب حروفها رغم وضوحها الظاهر غير مقروءة لي، وكان النص من ناحية أخرى مكتوبًا بلهجة عامية أو بلغة سرية رمزية. وكنت بين الحين والآخر أفهم بالجرس والمقارنة كلمة كما لو كانت آتية من بعيد. على أن عزيمتي لم تكن فترت بعد. فحتى

لو ظلَّت الوثيقة غير مقروءة، فإنَّ حروفها قد استعادت لي ذكريات حية من الماضي. فعلى وجه التحديد رأيت بوضوح صديقي «لونجس» يكتب حروفًا يونانية وعبرية في الحديقة وقت المساء. وعندما يهبط الليل كانت الحروف تتحول إلى طيور وتنانين وثعابين.

وعندما أخذت أفحص الفهرست، ارتعدت من وفرة المواد التي كانت تنتظرني، ولقد صادفت كثيرًا من الكلمات المألوفة والأسماء المعروفة.. وجفلت عندما صادفت اسمي، على أنني لم أجسر على أنْ أبحث عنه في السجلات. ومن ذا الذي يستطيع أنْ يتحمل سماع حكم على نفسه من محكمة شرعية تحيط علمًا بكل شيء؟ ومن ناحية أخرى وجدت على سبيل المثال اسم الفنان «بول كلي»(*) الذي تعرفت عليه أثناء الرحلة، والذي كان صديقًا لـ«كلينجسور»، وبحثت عن رقمه في السجلات، فوجدت هناك طبقًا مطليًّا بالذهب محفورًا أو مرسومًا عليه فروع برسيم. وكانت الورقة الأولى من أوراقه الثلاث تمثل قاربًا شراعيًّا صغيرًا أزرق، وكانت الثانية تمثل سمكة ذات قشور ملونة، وكانت الثالثة على هيئة برقية كتب عليها:

في زرقة الجليد

«بول» الذي يشبه كلي

ولقد ملأني ذلك بمتعة سوداوية. أنْ أقرأ عن «كلينجسور» و«لونجس» و«ماكس» و«تلي»، ولم أستطع كذلك مقاومة رغبتي

(*) كلي: برسيم.

في معرفة المزيد عن «ليو».. فوجدت مكتوبًا على البطاقة الخارجية بفهرست «ليو»:

Cave!

Archiepise. XIX Diacon O. VII

Corno Ammon. 6

Cave!

أثارني التحذير في كلمة *Cave.* وما استطعت أن أحمل نفسي على النفاذ إلى هذا الشر. ومهما يكن من أمر، فمع كل محاولة جديدة أخذت أزداد إدراكًا لما تحتوي عليه هذه السجلات من وفرة لا يحلم بها أحد، سواء من حيث المادة أو المعرفة أو المعادلات السحرية. كانت فيما يبدو، تضم العالم بأسره.

وبعد جولات سعيدة أو محيرة في كثير من فروع المعرفة، عدت مرات عديدة، وبفضل متزايد دائمًا إلى البطاقة التي تحمل اسم «ليو». وفي كل مرة تعترضني كلمة *Cave* التي وردت مرتين.. وبينما كنت أجول خلال غرفة أخرى للملفات، صادفت كلمة «فاطمة» وعليها هذه الملاحظات:

أمير. شرق٢	*Prince. Orient. 2*
ليلى. ألف ٩٨٣	*Noct. mill 983*
حديقة. ملذ ٠٧	*Hort. Delic, 07*

بحثت عن الموضع ووجدته في السجلات.. كان هناك حُقٌّ صغير يمكن فتحه، وكان يحتوي على صورة منمنمة لأميرة فاتنة الجمال، ذكرتني في لحظة بكل ليالي ألف ليلة وليلة، وبكل حكايات شبابي، وبكل أحلام ورغبات تلك المرحلة العظيمة التي قضيتها تحت الاختبار، وسجلت فيها نفسي عضوًا في «العصبة» كي أسافر إلى فاطمة في الشرق. كان الحُقُّ ملفوفًا في منديل منسوج برقة من الحرير البنفسجي، وكان يحمل عبيرًا عذبًا لا مثيل له، يذكر بالأميرات وبالشرق. وعندما شممت هذا العبير العريق النادر السحري، غمرني بغتة وبقوة الإحساس بالسحر العذب الذي كان قد شملني عندما بدأت رحلة حجي إلى الشرق، والإدراك بكيف تحطمت رحلة الحج بسبب عقبات غادرة أو مجهولة في الحقيقة، وكيف أخذ السحر عندئذ يتلاشى أكثر فأكثر، وكيف أصبحت الوحشة وخيبة الأمل واليأس العقيم أنفاس حياتي وطعامي وشرابي منذ ذلك الحين. لم يعد في مقدوري أن أبصر بالمنديل أو بالصورة. فكم كان كثيفًا حجاب الدموع الذي كان يغطي عينيَّ. وأخذت أفكر، آه، الآن لن تستطيع بعد، صورة الأميرة «العربية» أن تكون كافية لتمارس سحرًا في مواجهة العالم والجحيم، ولتجعل مني فارسًا ومجاهدًا. ولسوف أحتاج الآن إلى أنواع أخرى من سحر أشد قوة. ولكن كم كان عذبًا، وكم كان بريئًا، وكم كان مسعدًا، ذلك الحلم الذي غمر شبابي، وجعل مني قصَّاصًا وموسيقيًّا وتلميذًا مبتدئًا تحت التجربة، وأرشدني إلى «موربيو».

استفقت من تأملاتي على أصوات. كانت غرفة الأرشيف الفسيحة التي لا حد لامتدادها تواجهني من جميع الجهات على نحو غريب مريب. ولمعت في نفسي فكرة جديدة، ألم جديد، كوامض من برق. أنا الذي أردت بكل سذاجتي أن أكتب قصة «العصبة»، أجدني عاجزًا عن أن أفهم أو أن أفك طلاسم جزء واحد من ألف جزء من ملايين المخطوطات والكتب والصور والمراجع التي تحتويها السجلات والمحفوظات. ورأيتني أقف متواضعًا غبيًّا مضحكًا، غير مدرك لنفسي، مستشعرًا بضآلة لا حد لها، وسط كل الأشياء التي سُمح لي أنْ أنقب فيها، علّني أعرف على وجه الدقة حقيقة «العصبة» وحقيقة نفسي.

وجاء الموظفون من الأبواب البعيدة في أعداد ضخمة، وكنت لا أزال أستطيع التعرف على كثير منهم خلال دموعي. عرفت الساحر «حوب» وعرفت «لندهورست» رجل السجلات والمحفوظات، وعرفت «موتزار» في لباس «أبلو».. احتلت الهيئة المهيبة صفوفًا عديدة من المقاعد التي أخذت ترتفع وتضيق من الخلف. وفوق العرش الذي كان يشكل القمة، رأيت ظلة ذهبية لامعة.

تقدم «المتحدث باسم المجلس» خطوة إلى الأمام وأعلن:

– إن العصبة مستعدة لإصدار حكم عن طريق مسؤوليتها، على «هـ» الذي أدان نفسه، والذي التزم بالصمت إزاء أسرار العصبة، والذي أدرك الآن إلى أي حد من الغرابة والتجديف أنْ ينوي الكتابة عن قصة

رحلة لم يكن ندًّا لها، وعن العصبة التي لم يعد يؤمن بوجودها وأصبح غير مخلص لها.

ثم استدار ناحيتي، وقال بصوته الواضح الجهوري:

- السيد هـ. يا مَن أدنت نفسك، هل توافق على الاعتراف بمحكمة العدل والخضوع لحكمها؟

وأجبت:

- نعم.

واستمر يقول:

- هـ، يا مَن أدنت نفسك، هل توافق على أن يصدر مسؤولو محكمة العدل حكمهم عليك من دون الرئيس الأعلى، أم أنك ترغب أن يصدر الرئيس بنفسه حكمه عليك؟

فقلت:

- أوافق على أن يصدر المسؤولون حكمهم عليَّ، سواء بوجود الرئيس الأعلى أو بغير وجوده.

وكان «المتحدث» على وشك أنْ يجيب عندما قال صوت رقيق من عمق القاعة البعيد:

- إن الرئيس مستعد أنْ يصدر الحكم بنفسه.

هزني جرْس هذا الصوت الرقيق على نحو غريب، ومن أعماق الغرفة، من الآفاق البعيدة للسجلات جاء رجل، كانت مشيته خفيفة

مسالمة، وكان رداؤه يتألق بالذهب، اقترب حتى بلغ وسط صَمْت المجلس، وعرفت مشيته، عرفت حركاته، وفي النهاية عرفت وجهه، كان «ليو». وفي رداء احتفالي مهيب، أخذ يصعد صفوف المسؤولين حتى بلغ «العرش الأعلى» مثل بابا من باباوات الكنيسة، وكزهرة نادرة مهيبة أخذ يصعد الدرج بهذا اللمعان الباهر لردائه. وعندما كان يمر بكل صف من صفوف المسؤولين، كانوا يقفون تحيةً له، ثم تبوأ مجلسه المتألق بجدية وتواضع واقتدار. وكان في تواضعه يشبه أحد الباباوات المقدسين أو رئيسًا للكنيسة أو أحد البطاركة وهو يتقلد أوسمة منصبه.

وغمرني انفعال عميق في انتظار الحكم الذي كنت متأهبًا لقبوله بتواضع، سواء أجرى عليَّ الآن عقابًا أو منحني عفوًا. ولم يكن انفعالي ودهشتي أقل عمقًا بأن يكون «ليو» الحمّال والخادم السابق هو الذي يرأس الآن «العصبة» كلها، ويتأهب لإصدار حكم عليَّ، على أنني كنت كذلك أكثر إثارة ودهشة وفزعًا وسعادة بهذا الاكتشاف الكبير الذي اكتشفته اليوم، وهو أن «العصبة» لا تزال في كامل رسوخها وقوتها شأنها دائمًا، وأنه ليس «ليو» والعصبة هما اللذان تخليا عني وأفقداني الإيمان، وإنما أنا وحدي الذي كنت على درجة من الضعف والحماقة جعلتني أعجز عن التفسير الصحيح لتجاربي الشخصية، وأتشكك في «العصبة»، وأعتبر «الرحلة إلى الشرق» رحلة فاشلة، وأعد نفسي الإنسان الباقي الوحيد من قصة انتهت، وأصبحت

منسية، ومؤرخها كذلك، على حين أنني لم أكن أكثر من هارب، خائن، منشق، كان إدراكي لهذه الحقيقة يملؤني بالحيرة والبهجة معًا. ووقفت هناك متفائلًا متواضعًا عند أقدام «العرش الأعلى» الذي قبلني ذات يوم أخًا في «العصبة»، والذي جعلني أجتاز مرحلة التجربة والإعداد، وأشارك في حفل التخرج والذي أعطاني خاتم «العصبة»، والذي أرسلني مباشرة إلى الخادم «ليو» على طريق الرحلة. وفي غمرة كل شيء تبينت خطيئة جديدة، خسارة جديدة لا سبيل إلى تفسيرها، عارًا جديدًا، إنني لم أعد أملك خاتم «العصبة»، لقد فقدته، لم أكن أعرف متى فقدته أو أين، ولم أفتقده مرة واحدة حتى هذا اليوم.

وأثناء ذلك، أخذ «الرئيس ليو» في لباسه الذهبي يتكلم بصوته العذب اللطيف. وتناهت إليَّ كلماته تغمرني كضوء الشمس لطفًا وطمأنينة.

وأخذت الكلمات تتوالى من «العرش الأعلى»:

– إن هذا الذي أدان نفسه، قد أُتيحت له الفرصة كي يخلص نفسه من بعض أخطائه. وهناك الكثير الذي يتهم به. وقد يكون من المتصور ومن الممكن التسامح فيه إلى حد كبير أنه كان غير مخلص «للعصبة»، وأنه قد حَمّل «العصبة» مسؤولية فشله وحماقاته، وأنه قد تشكك في استمرارها، وأنه قد تطلع تطلعًا غريبًا لأن يصبح مؤرخ «العصبة»، كل هذا لا يعني الشيء الكثير ضده. إن هذه الأمور إذا سمح لي «المُدين نفسه» بالقول، ليست إلَّا حماقات طالب مبتدئ، ويمكن الإغضاء عنها بابتسامة.

وتنفست تنفسًا عميقًا، وارتسمت على شفاه أعضاء المجلس المهيب ابتسامة خفيفة. أن يعتبر الرئيس أشد خطاياي فداحة، بل يعتبر توهمي بأن «العصبة» لم يعد لها وجود بعد، وبأنني التلميذ الوحيد الباقي منها، مجرد حماقات وتفاهات، قد غمرني براحة عظيمة، على أنَّ هذا قد أعادني في نفس الوقت وبشكل قاطع إلى نقطة البداية.

وواصل «ليو» كلامه وقد أصبح صوته حزينًا وجادًّا:

– ولكن هناك إدانات أشد خطورة تنسب إلى المتهم. وأبشعها هي أنه لا يقف ليدين نفسه على هذه الخطايا، بل يبدو أنه غير مدرك لها. إنه يأسف بشدة أنه قد أساء إلى «العصبة» بالفكر، وأنه لا يستطيع أن يغفر لنفسه، وأنه لم يتعرف على الرئيس «ليو» في شخص الخادم «ليو»، وكان على وشك التحقق من مدى عدم إخلاصه «للعصبة» ولكنْ.. على حين أنه كان يدرك هذه الأفكار والحماقات المشينة بشكل بالغ الجدية، كما يدرك الآن فقط، بارتياح أنه يمكن التغاضي عنها بابتسامة، فإنه ينسى بعناد إداناته الحقيقية، وهي جم غفيرة، وإن كل واحد منها لعلى درجة من الخطورة تستلزم عقوبة صارمة.

وتسارعت دقات قلبي. واستدار «ليو» ناحيتي قائلًا:

– أيها المتهم «هـ»، سوف تستبصر أخطاءك فيما بعد، وسوف تُرشد كذلك إلى كيفية تجنب هذه الأخطاء في المستقبل، على أنه من أجل أن أبين لك فحسب أنك ما زلت على فهم قاصر لموقفك، فإنني أسألك: هل تتذكر عندما كنت تسير خلال المدينة في صحبة

الخادم «ليو» الذي كان عليه، باعتباره رسولًا، أن يحضرك للمثول أمام «العرش الأعلى»؟ نعم، إنك تتذكر ذلك. وهل تتذكر كيف عبرنا «قاعة المدينة» وكنيسة القديس «بولس» والكاتدرائية، وكيف دخل الخادم «ليو» الكاتدرائية كي يركع ويصلي لفترة قليلة، وكيف أنك لم تمتنع فحسب عن الدخول معي لتؤدي صلواتك وفقًا للتوجيه الرابع في قسمك «للعصبة»، وإنما مكثت بالخارج متضجرًا ملولًا منتظرًا نهاية هذه الطقوس المسئمة التي بدت لك غير ضرورية، والتي لم تكن تعني لك شيئًا أكثر من اختبار كريه لضجرك الأناني؟ نعم، إنك تتذكر ذلك، إنك بتصرفك هذا أمام بوابة الكاتدرائية وحدها، قد دُست بالفعل على كل المتطلبات الأساسية «للعصبة» وعاداتها. لقد استخففت بالدين واحتقرت أخًا في «العصبة».. ورفضت بضجرٍ فرصة للصلاة والتأمل ودعوة إليها.. إن هذه الخطايا لا سبيل إلى غفرانها ما لم تكن هناك ظروف خاصة مخففة في قضيتك.

لقد ضرب الآن في الصميم. كل شيء يمكن أن يقال الآن.. لن يكون هناك موضوعات ثانوية أخرى بعد ذلك، لن تكون هناك حماقات أخرى.. لقد كان أكثر من مصيب. لقد طعنني في مقتل.

واستمر الرئيس قائلًا:

- إننا لا نريد أن نعدد أخطاء المتهم جميعها، وهو لن يحاكم محاكمة حرفية؟ وإننا نعرف أنَّ الأمر يحتاج فحسب إلى تعجيلنا بإيقاظ ضمير المتهم، وإلى أن نجعل منه تائبًا مدينا لنفسه. وأود كذلك

أيها المدين لنفسه «هـ» أنْ أنصحك بعرض بعض تصرفاتك الأخرى على حكم ضميرك. هل يجب أنْ أذكرك بذلك المساء الذي قمت فيه بزيارة الخادم «ليو»، ورغبت في أنْ يتعرف هو عليك كأخ في العصبة، برغم أنَّ ذلك كان مستحيلًا؛ لأنك كنت قد جعلت نفسك شخصًا غيرَ معترف به كأخ في «العصبة». هل يجب أنْ أذكرك بأشياء قلتها أنت نفسك للخادم «ليو»؟ عن بيع كمانك؟ عن الحياة الفظيعة الحمقاء الضيقة الانتحارية التي عشتها لسنوات؟

لا يزال هناك أمر واحد آخر أيها الأخ في «العصبة» هـ، لا يجب أن أسكت عليه. من الممكن أن يكون الخادم «ليو» قد أساء إليك في ذلك المساء. ربما نفترض أنه قد فعل ذلك. لعل الخادم «ليو» كان مبالغًا في صرامته، لعله كان مبالغًا في عقلانيته، لعله لم يُبْدِ تجاهك وتجاه ظروفك رفقًا وتعاطفًا كافيين.. ولكن ثمة سلطات أعلى وقضاء أكثر عصمة من الخادم «ليو». ماذا كان حكم الحيوان عليك أيها المتهم؟ هل تتذكر الكلب «نكر»؟ هل تتذكر رفضه وإدانته لك؟ إنه ظاهر ولا سبيل للفساد إليه، وهو لا يتحيز وليس واحدًا من إخوة «العصبة».

توقف «ليو» عن الكلام.. نعم، الكلب الألزاسي «نكر»! لقد رفضني وأدانني حقًّا. أوافق على ذلك.. لقد أصدر الألزاسي الحكم عليَّ من قبل.

وعاد «ليو» مرة أخرى يقول: «المدين لنفسه هـ»، ومن البريق الذهبي لملابسه وظلة عرشه، أخذ صوته الآن يجلجل رصينًا صافيًا

واضحًا مثل صوت القائد عندما يظهر أمام باب «دون جيوفاني» في الفصل الأخير:

– أيها المدين لنفسه «هـ»، لقد أنصت إليَّ، ووافقت معي، إنك فيما تظن قد أصدرت الحكم على نفسك من قبل؟

فقلت في صوت لين:

– نعم.

– إننا نظن أنه حكم غير مناسب هذا الذي أصدرته على نفسك.

تمتمت:

– نعم.

وعندئذ قام «ليو» من العرش ومد ذراعيه برفق:

– إنني أتوجه إليكم الآن أيها المسؤولون. لقد سمعتم وعرفتم كيف صارت الأمور مع الأخ في العصبة «هـ» إنها قدر أنتم على ألفة به، فكثير منكم كان عليه أن يعاني تجربته بنفسه. إن المتهم لم يكن يعرف حتى هذه الساعة، أو لم يكن في الحقيقة يستطيع أن يصدق أنَّ ارتداده عن العقيدة وضلاله كان اختبارًا. وهو لفترة طويلة لم يستسلم، لقد احتمل ذلك لسنوات عديدة، لا يعرف شيئًا عن «العصبة» محتفظًا بوحدته، يرى كل شيء قد آمن به يتحطم وينهار. وفي النهاية لم يعد يستطيع أن يختفي أو أن يتمالك نفسه.. لقد اشتدت معاناته إلى حد كبير، وأنتم تعلمون أنه ما إن تبلغ المعاناة حدًّا كافيًا من الحدة والشدة،

حتى يندفع المرء إلى الأمام. وإنَّ الأخ «هـ» قد بلغ حد اليأس في الاختبار الذي عاناه، وإن اليأس هو ثمرة كل محاولة جادة لفهم الحياة الإنسانية وتزكيتها وإحقاقها، إن اليأس هو ثمرة كل محاولة جادة لممارسة الحياة بالفضيلة والعدل والفهم وتحقيق ما تتطلبه هذه القيم. إن الأطفال يعيشون على جانب من جانبي اليأس، ويعيش المستفيقون الواعون على الجانب الآخر. إن المتهم «هـ» لم يعد طفلًا، على أنه لم يستفق بعد تمامًا. إنه لا يزال يعيش في منتصف اليأس.. ولسوف يتغلب على ذلك، وبهذا سوف يأخذ في اجتياز مرحلته الإعدادية الثانية. وإننا لنرحب به من جديد في «العصبة» وهو لم يعد يدعي أنه يفهم معناها. وإننا لنعيد إليه خاتمه المفقود الذي احتفظ له به الخادم «ليو».

ومن ثم أحضر لي الخاتم «المتحدث باسم المجلس»، وقبَّل وجنتيَّ، ووضع الخاتم في أصبعي، وما كدت أنظر إلى الخاتم، ما كدت أشعر ببرودة معدنه في أصابعي، حتى خطرت ببالي آلاف الأشياء.. آلاف من حالات القصور والإنكار غير المتصورة. فخطر ببالي قبل كل شيء، أنَّ الخاتم له أربعة أحجار على أبعاد متساوية منفصلة، وأنَّ أحد قوانين «العصبة»، وجانبًا من القسم أنْ يلف الخاتم ببطء حول الإصبع مرة واحدة على الأقل كل يوم، وعند كل حجر من الأحجار الأربعة يتذكر المرء واحدًا من التوجيهات الأربعة الأساسية للقسم. إنني ما فقدت الخاتم، وما افتقدته إلَّا مرة واحدة فحسب،

وإنما ما عدت كذلك أردد التوجيهات الأربعة الأساسية، أو أفكر فيها طوال تلك السنوات الفظيعة.. وفي الحال حاولت أنْ أرددها باطنيًّا، فقد كانت لديَّ فكرة عما كانت عليه هذه التوجيهات. كانت لا تزال في أعماقي. كانت تنتسب إليَّ، كما ينتسب اسم يتذكره المرء في لحظة، ولكنه في هذه اللحظة المحددة يعجز عن استرجاعه، لا، لقد ظلت التوجيهات صامتة في داخلي، لم أستطع أن أرددها، لقد نسيت ألفاظها، لقد نسيت القواعد، فلسنوات عديدة لم أرددها.. ولسنوات عديدة ما راعيتها، وإنما احتفظت بها في قداسة، ومع ذلك، فقد اعتبرت نفسي أخًا وفيًّا «للعصبة».

وربت «المتحدث باسم المجلس» على ذراعي بحنان، عندما لاحظ فزعي وإحساسي العميق بالخزي، ثم سمعت الرئيس يتكلم ثانية:

– أيها المتهم، وأيها المدين لنفسه «هـ»، لقد برئت، ولكن ينبغي عليَّ أن أخبرك أنَّ من واجب الأخ الذي ينال البراءة في قضية كهذه أنْ يتدرج في سلك المسؤولين وأنْ يتبوأ مقعدًا من مقاعدهم، حالما يجتاز اختبارًا في إخلاصه وطاعته، وأنْ يكون له حرية الاختيار في الاختبار الذي يجتازه. والآن، أيها الأخ «هـ» أجب عن أسئلتي:

– هل أنت مستعد لترويض كلب متوحش كاختبار لإيمانك؟

فتراجعت إلى الخلف مذعورًا، وصحت مبتعدًا:

– لا. لا أستطيع!

- هل أنت مستعد لأن تحرق في الحال سجلات «العصبة»، وراغب في ذلك إذا أمرناك، تمامًا كما يحرق الآن المتحدث باسم مجلسنا جانبًا منها أمام عينيك؟

وتقدم المتحدث باسم المجلس خطوة إلى الأمام، ودس يديه في خزائن السجلات المرتبة ترتيبًا حسنًا، وأخرج كلتا يديه، وقد امتلأتا بالأوراق، بمئاتٍ عديدة من الأوراق، وأخذ يحرقها فوق مدفأةٍ، وقد انتابني خوف بالغ.

فقلت متراجعًا إلى الخلف:

- لا! لا أستطيع أن أفعل هذا كذلك.

صاح الرئيس:

- خذ حذرك أيها الأخ، خذ حذرك أيها الأخ المتهور! لقد بدأت بأيسر المهام التي تتطلب أضعف قدر من الإيمان. وإن كل مهمة أعرضها عليك بعد ذلك على التوالي سوف تزداد صعوبة باستمرار. أجبني: هل أنت مستعد لأن تستشير سجلاتنا عن نفسك وراغب في ذلك؟

واعترتني برودة، وحبست أنفاسي، ولكنني قد فهمت. إنَّ كل سؤال سيصبح أكثر فأكثر صعوبة، ولم يكن هناك من مهرب إلَّا إلى ما هو أشد صعوبة وأكثر سوءًا. ووقفت وأنا أتنفس بعمق، وقلت:

- نعم.

وقادني المتحدث باسم المجلس إلى المناضد، حيث توجد المئات من خزائن الملفات، وبحثت ووجدت الحرف «هـ» وجدت اسمي، وفي الحقيقة وجدت قبل أي شيء، اسم جدي الأكبر «أوبان» الذي كان عضوًا في العصبة منذ ٤٠٠ سنة مضت، ثم كان هناك، وقد كتب عليه التعليق التالي:

Chattorum r. gest XC.

Ci V. clav. invid. 49.

اهتزت الورقة في يدي. وأثناء ذلك، نهض المسؤولون من مقاعدهم الواحد بعد الآخر، ومدّوا أيديهم إليَّ، وأخذوا ينظرون مباشرة في وجهي، ثم غادروا المكان. وأصبح «العرش الأعلى» خاليًا. وكان الرئيس آخر من هبط من العرش، ومد يده إليَّ، ونظر في وجهي، وابتسم ابتسامته الورعة، ابتسامة الأسقف الطيب. وكان آخر من غادر القاعة. وبقيت و حدي أحمل في يدي، الورقة التي تشير إلى السجلات التي أحصل منها على المعلومات.

لم أستطع أن أتمالك نفسي في الحال كي أُقدِم على البحث في السجلات عن نفسي. ووقفت مترددًا في القاعة الخالية، ورأيت الصناديق والدواليب والخانات والخزائن تمتد امتدادًا شاسعًا، حيث تتراكم كل المعلومات القيمة التي أستطيع دائمًا أن أظفر بالتعرف عليها. ومع ذلك، فسبب تخوفي من الاطلاع على السجل الخاص بي، وبسبب رغبتي الملحة في المعرفة، سمحت لنفسي أن أترك شؤوني

الخاصة قليلًا، من أجل أن أدرس أولًا أمرًا أو آخر كان مهمًّا بالنسبة لي، وبالنسبة للرحلة إلى الشرق. وعلى سبيل اليقين، كنت أعرف حقًّا منذ فترة طويلة، أن قصتي قد أُدينت واستبعدت بالفعل، وأنني لا ينبغي أبدًا الانتهاء من كتابتها، على أنني في الوقت ذاته كنت فضوليًّا.

ولاحظت وجود مذكرة موضوعة وضعًا سيئًا بين الملفات الأخرى، وتبرز بينها في إحدى الخزائن.. فاتجهت إليها.. وسحبت المذكرة التي كتب عليها:

موربيو أنفريوري.

وما كان في مقدور كلمة أخاذة أخرى أن تعبر عن مدى فضولي بطريقة أكثر إيجازًا وتحديدًا من هذه الكلمة، وأخذت أبحث عن موضعها في السجلات وقلبي يخفق بسرعة.. وكان موضعها أحد أقسام السجلات الذي يضم عددًا كبيرًا من الأوراق، وفي أعلاها كانت توجد نسخة من وصف لـ«موربيو جورج» مأخوذ عن كتاب إيطالي قديم، ثم كانت هناك ورقة في قطع الربع صفحة، مدون عليها ملاحظات مختصرة عن الدور الذي لعبته «موربيو» في تاريخ «العصبة». وكانت كل الملاحظات تشير إلى الرحلة إلى الشرق، وتشير في الحقيقة إلى القاعدة والمجموعة التي كنت أنتمي إليها. كان مسجلًا هنا أن مجموعتنا قد بلغت «موربيو» في رحلتها. وهناك وضعت تحت اختبار لم تستطع اجتيازه، وكان هذا الاختبار هو اختفاء «ليو». وبرغم أن قواعد «العصبة» كان ينبغي أن يكون مرشدًا

لنا، وبرغم أنه حتى إذا بقيت المجموعة بغير قائد، فإنَّ التوجيهات قد ظلت سليمة وصحيحة، واستقرت في نفوسنا منذ بداية الرحلة، فمع ذلك فإنَّ مجموعتنا فقدت عقلها وإيمانها منذ اللحظة التي اكتشفت فيها اختفاء «ليو»، وأخذت تنتابها الشكوك واستغرقتها مناقشات عظيمة، وفي النهاية تفتتت المجموعة كلها، وأصبحت شراذم وأفرادًا متفرقين، وذلك على نقيض روح «العصبة». لم يعد هذا التفسير لمحنة «موربيو» يثير دهشتي كثيرًا. على أنه -من ناحية أخرى- قد أصابني بدهشة بالغة ما قرأته بعد ذلك عن تفتت مجموعتنا، ذلك أن ثلاثة إخوة على الأقل في عصبتنا قد حاولوا أن يكتبوا تقريرًا عن رحلتنا، وقدموا وصفًا للأحداث التي وقعت في «موربيو». وكنت واحدًا من هؤلاء الثلاثة. وقد ضم القسم نسخة صحيحة من مخطوطتي. وأخذت أقرأ ما كتبه الاثنان الآخران، وقد اجتاحتني أغرب الأحاسيس. لقد وصف الكاتبان، بشكل أساسي، الأحداث التي وقعت في ذلك اليوم بطريقة لا تختلف كثيرًا عما فعلت، ومع ذلك، فما أكثر ما بدت لي مختلفة.

قرأت في واحدة منها:

«لقد كشف لنا اختفاء الخادم «ليو»، فجأة وبفظاعة، مدى الشقاق والاضطراب الذي مزّق كل وحدتنا التي كانت تبدو كاملة في الظاهر حتى ذلك الحين، فعلى وجه اليقين، أدركت فئة قليلة منا مباشرة، أو خالجها الشك في أن «ليو»، لم يُصب بسوء ولا فرَّ هاربًا، وإنما استدعاه سرًّا مسؤولو «العصبة»، ومع ذلك، فلم يستطع واحد منا

أنْ يتأمل إلى أي حد كان اجتيازنا سيئًا لهذا الاختبار، دون أن يشعر بأعمق الندم والخزي. فلم يكد «ليو» يغادرنا حتى تلاشى ما بيننا من إيمان ووفاق.

كان الأمر كما لو أن رباط الدم الذي كان يربط بين مجموعتنا قد انساب من جرح خفي. وفي البداية، كانت هناك آراء مختلفة، ثم تلتها منازعات علنية حول أشد المسائل تفاهة وسخافةً.. فأذكر على سبيل المثال أن «هـ. هـ» أستاذنا في الموسيقى والأغاني، الذي كان يحظى بالمحبة والتقدير، أخذ يؤكد فجأة أن «ليو» المختفي قد حمل كذلك في حقيبته، مع أشياء أخرى قيمة، الوثيقة القديمة المقدسة، المخطوطة الأصلية للسيد الرئيس. ولقد عُورض هذا الرأي بحرارة لمدة أيام، ولو أننا تناولنا بطريقة رمزية رأي «هـ» غير المعقول، لوجدناه في الحقيقة رأيًا ذا دلالة فائقة. حقًّا، لقد بدا الأمر كما لو أن نجاح العصبة وتماسك وحدتها الكلية، قد اختفيا تمامًا برحيل «ليو» من مجموعتنا الصغيرة. إن الموسيقي «هـ» نفسه كان نموذجًا مؤسفًا لذلك. فحتى يوم «موربيو أنفريوري» كان واحدًا من أكثر إخوة «العصبة» وفاءً وإخلاصًا. كما كانت له شعبيته كفنان، وبرغم الكثير من السلبيات في سلوكه، فقد كان واحدًا من أنشط أعضائنا. ومع ذلك، فقد انتكس إلى حالة من القنوط والاكتئاب والتشكك، وأصبح أكثر من مهمل في أداء واجباته، بل أصبح متزمتًا، عصبيًّا، كثير الشجار.. ولما تختلف ذات يوم في النهاية عن المسيرة، ولم يعد يظهر مرة أخرى، لم يخطر ببال

أحد منا أن يسانده وأن يبحث عنه، كان من الواضح أنها حالة انشقاق ورِدَّة. ولسوء الحظ لم يكن هو الوحيد.. وفي النهاية لا شيء تبقى من مجموعتنا الصغيرة المرتحلة...».

ووجدت هذه الفقرة في تقرير المؤرخ الآخر:

«تمامًا كما انهارت روما القديمة بعد موت القيصر، أو الأفكار الديموقراطية في العالم بعد تخلي «ويلسون» عن الملونين، كذلك تفككت عصبتنا في يوم «موربيو» الحزين. وإذا كان ثمة ما يمكن ذكره من لوم ومن مسؤولية، فإن عضوين مسالمين في الظاهر هما اللذان يقع عليهما اللوم، هما الموسيقي «هـ. هـ» و«ليو» أحد خدامنا. كان هذان الرجلان في السابق عضوين بارزين ومخلصين من أعضاء «العصبة»، بالرغم من قصورهما في فهم دلالة «العصبة» وفي تاريخ العالم. لقد اختفيا ذات يوم دون أن يتركا أي أثر حاملين معهما كثيرًا من الحاجيات القيمة والوثائق الهامة، مما يدل على أنَّ أعداء «العصبة» قد رشوا هذين الرجلين التعسين».

وإذا كانت ذاكرة هذا المؤرخ تبدو على هذا النحو الكبير من التشوش وعدم الدقة، برغم أنه فيما يبدو قد كتب التقرير بإيمان كامل واقتناع بصدقه التام، فما قيمة ملاحظاتي الخاصة؟ فلو أننا وجدنا عشرة تقارير أخرى عن «موربيو» و«ليو» ونفسي لمؤلفين آخرين، فمن المحتمل أن يناقض كل منها الآخر. لا، إن جهودنا التاريخية كانت بلا جدوى. فليس هناك ما يبرر مواصلتها وقراءتها. ويمكن

للمرء وهو مستريح أن يترك التراب يتراكم عليها في هذا القسم من السجلات.

وسَرتْ رعدة في جسدي عندما أدركت ما يجب عليَّ أن أتعلمه في هذه الساعة. كم كان كل شيء وكل إنسان في هذه المرايا منحرفًا، مختلفًا، مشوهًا. كم اختفى وجه الحقيقة نفسه وراء كل هذه التقارير، والتقارير المضادة، والأساطير في صورةٍ تدعو إلى السخرية، وعلى نحو لا يمكن إدراكه. أي شيءٍ لا يزال يعد حقيقة؟ وأي شيء لا يزال جديرًا بأن يصدق؟ وأي شيء يتبقى عندما أتعرف كذلك على نفسي وعلى شخصيتي وعلى تاريخي من المعلومات المختزنة في هذه السجلات؟

يجب أن أكون متأهبًا لأي شيء. وعلى حين فجأة، لم أعد أحتمل التشكك والحيرة أكثر من ذلك.

فأسرعت إلى قسم *Chattorum reogestae*، وبحثت في الفرع الخاص بي وفي رقمي، وتوقفت أمام الجزء الذي يشير إلى اسمي. كان محرابًا، وعندما أزحت الستارة الرقيقة جانبًا لم أجد شيئًا مكتوبًا. فلم يكن يضم إلَّا تكوينًا.. تمثالًا قديمًا مستهلكًا مصنوعًا من الخشب أو الشمع بألوان باهتة. كان يبدو كأنه طراز من آلة أو صنم همجي. وللوهلة الأولى لم أستطع أن أتبينه على وجه الإطلاق.. لقد كان تكوينًا يتألف في الواقع من جزئين، وإن كان له ظهر مشترك، فحملقت فيه قليلًا محبطًا مشدوهًا، ثم لاحظت وجود شمعة موضوعة في شمعدان

من المعدن، ومثبتة في حائط المحراب، وكانت هناك كذلك علبة كبريت. أشعلت الشمعة، فغمر التمثال الغريب المزدوج، نور ساطع.

ورويدًا، رويدًا، أخذ الأمر يتضح لي... فرويدًا رويدًا وبالتدريج، أخذت أرتاب فيما يعبر عنه، ثم أدركته. كان يمثل تكوينًا لي أنا نفسي. على أنَّ التماثل معي كان ضعيفًا بشكل مؤسف، وما كان يعبر إلَّا عن نصف الحقيقة. كانت ملامحه مطموسة، وكان ثمة شيء مهزوز ضعيف يموت أو يرغب في أن يموت في مجمل تعبيره. وكان يبدو كقطعة من النحت يمكن أنْ تسمى «زوال» أو «انهيار» أو شيء من هذا القبيل.

ومن ناحية أخرى، وجدت التمثال الآخر الذي كان متصلًا بتمثالي ليكوّنا معًا تمثالًا واحدًا، قويًّا، سواء من حيث اللون أو التشكيل. وعندما كنت على وشك أن أتبين من الذي يشبهه، وأعني به الخادم والرئيس «ليو»، اكتشفت شمعة أخرى في الحائط، فأشعلتها كذلك. وعندئذ لم أعد أرى فحسب التكوين المزدوج الذي كان يمثل «ليو» ويمثلني، وقد أخذ يزداد وضوحًا، وتزداد ملامح كل صورة فيه تطابقًا، وإنما رأيت كذلك أن سطح التكوينين مسطح شفاف بحيث يمكن للمرء أن يبصر داخله كما يبصر خلال سطح زجاجة أو زهرية. وأبصرت داخل التكوينين شيئًا يتحرك ببطء، ببطء شديد للغاية، بنفس الطريقة التي يتحرك بها ثعبان يغط في النوم. ثمة شيء كان يحدث هناك. شيء يشبه صيرورة دائمة السيلان والذوبان في بطء

ونعومة بالغتين. حقًّا، كان ثمة شيء يذوب أو يتدفق من صورتي إلى صورة «ليو». وأدركت أن صورتي كانت تمر بعملية انسياب إلى صورة «ليو» وإضافة إليها، مغذية إياها، ومقوية لها. وكان يبدو أنه في الوقت المناسب سوف تنساب كل مادة إحدى الصور إلى الصورة الأخرى، ولن تبقى إلَّا صورة واحدة فحسب!

إنه «ليو». وإنه هو الذي يجب أن يكبر، أما أنا فيجب أن أختفي.

وعندما كنت أقف هناك أشاهد وأحاول أن أفهم ما أشاهد، أخذت أتذكر محادثة قصيرة قد جرت ذات مرة بيني وبين «ليو» أثناء أيام الاحتفال في «برمجارتن». لقد تحدثنا عن عملية إبداع الشِّعر، وكيف أنها أكثر حيوية وأكثر حقيقة من الشعراء أنفسهم.

أخذ ضوء الشموع يخفت، حتى انطفأ. وغمرني إرهاق ورغبة في النوم لا حد لهما، فاستدرت مبتعدًا لأبحث عن موضع أستطيع فيه أن أستلقي وأن أنام.

* * *